بيت الحكمة

جَدَّتي

جبران مسعود



hachette
أنطوان .A

جَدَّتي

قِصصٌ مِن صميمِ لبنان

بيت الحكمة
بيروت

جَدَّتي

جبران مسعود

الضّبط اللّغويّ والاستثمار التّربويّ: خليل السّيقلي

الغلاف، التّصميم والرّسم: ساندرا غصن

الدّاخل، الرّسوم: جوزف دكّاش

هاشيت
أنطوان
تربية

جَدّتي

متابعة النّشر: نيكول عقيقي المصوَّر

التّصميم المنهجيّ: Christie's *for printing and advertising*

ر.د.م.ك. 3 – 375 – 73 – 9953 – 978

النّاشر: هاشيت أنطوان Hachette Antoine

الطّبعة الأولى 2010

ص.ب. 0656-11، رياض الصّلح

2050 1107 بيروت، لبنان

العنوان التّجاريّ: سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست

هاتف: 483513 – 1 – 961

بريد إلكترونيّ: info@hachette-antoine.com

قـصّـة

جَدَّتي

بكَيْتُ جدَّتي يومَ ماتَتْ بُكاءَ مَن يَدفِنُ قَلبَهُ. لَم تَكُنْ **غَضَّةَ الإهابِ** فأَبكيَ فيها شبابَها؛ فقدْ يَبستْ في الثّمانينَ، وجفَّتْ، **وتقدَّدَتْ** كصَخرةٍ مِن صخورِ «لُبنانَ» العتيقةِ. ولَم تكُنْ قيّمةً على فِراخٍ فأَبكيَ فيها الحاميَ، وأَبكيَ في فِراخِها الأيتامَ الضُّعفاءَ؛ فقدْ كانَتْ مُنذُ عهدٍ بعيدٍ لا تُفارِقُ فراشَها لاِنطفاءِ النّورِ في عَينَيْها انطفاءً كادَ يكونُ تامّاً؛ وإنَّ أولادَها كانوا نُسوراً يُحلِّقونَ في **الخافقَيْنِ**، ولهُم في كلِّ رفَّةِ جَناحٍ نَفحةٌ مِن

غضّةٌ: نَضِرَةٌ.

الإهابُ: الجلدُ، البَشَرَةُ.

تقدّدَتْ: جفَّتْ، يبسَتْ.

الخافقانِ: الشّرقُ والغربُ.

رِضاها، وقَرعةٌ على صَدرِها مصحوبةٌ بِلَفتةٍ إلى فوقُ، وهَمسةٍ. ولَم تكُنْ تُمِدُّني بأَموالِها فأَبكيَ فيها النّبعَ الزّاخرَ الّذي **غاضَ**؛ فقدْ كانَتْ، عِندَ موتِها، فقيرةً لا تَملِكُ قِرشاً، بَعدَما وَهبَتْني ثروتَها بكامِلِها، نقداً! ففي يومٍ، وقدْ عانَقَتْها ذِراعي اليُمنى، وراحَتْ هي تَعبَثُ بشَعرِ ذِراعي اليُسرى، ونحنُ نَتجاذَبُ أحاديثَ لا يَفهمُها أَحدٌ غيرُنا، نادَتْ أمّي، وطلبَتْ إلَيْها أنْ تُناوِلَها مِن خِزانتِها جِزداناً جَبَليّاً كنْتُ قدْ نَسيتُه، بعدَ انقطاعِ جَدّتي الطّويلِ عَنِ الكنيسةِ حَيثُ كانَ يُلازِمُها سنةً بعدَ سنةٍ. ورغبَتْ إلى أمّي أنْ تَفتحَ الجِزدانَ، ففَعلَتْ، ثُمّ صارَحَتْها بسِرٍّ كانَ دفيناً في أَعماقِها وفي أَعماقِ جِزدانِها، وكأنّها خافَتْ أنْ **يَدهَمَها** الموتُ فيَموتَ السِّرُّ معَها:

- في الجِزدانِ قروشٌ. مِشْ هَيْك؟

- بَلى.

غاضَ: غارَ ونَضَبَ.

يَدهَمُها: يُباغتُها، يأتيها فجأةً.

ـ هَوْدي المصريّاتْ خَبّيْتْهُنْ مِن زمانْ. أَعطيني إيّاهُنْ.

وقَبضَتْ على قِطعِ المَعدِنِ، ثُمّ رَفعَتْ يَدي الّتي كانَتْ تُداعِبُ شَعرَها ووَجهَها، و**دَسّتْ** في كَفّي ثَروتَها قائلةً:

ـ خُذْ. هَوْدي كِلْهُنْ إِلَكْ.

ومعَ أنّي كنْتُ أَعـرفُ أنّ القِطعَ المَعدِنيّةَ كانَتْ عبارةً عَن أرباعِ ليراتٍ وقروشٍ وأنصافِ قروشٍ فِضّيّةٍ، وخمساتِ قروشٍ نُحاسيّةٍ، وأنّ هَذه العُملةَ قد **دالَتْ دَولتُها** مُنذُ عَهدٍ بعيدٍ، فقدْ نَظرْتُ إلى جَدّتي **بوَجْدٍ**، ثُمّ عَصرْتُها عِصرةً جَعلَتْها تُطلِقُ في الغرفةِ «آخاً» مُرعِبةً، وجَعلَتْها تَندمُ، إلى حينٍ، على ما بَدا مِنها مِن **تهوُّرٍ** ساعةَ تَنازلَتْ لي عَن مُمتلَكاتِها! ذلكَ أنّ الأُمورَ لَم

دسّتْ: أدخلَتْ سِرّاً.

دالَتْ دَولتُها: انقضَتْ وذَهبَتْ أيّامُها.

الوَجْدُ: المحبّةُ الشّديدةُ.

التهوُّرُ: الوقوعُ في الأمرِ بقِلّةِ مبالاةٍ.



تكُنْ لِتَجريَ بَينَنا دائماً على ما يُرامُ؛ فقدْ كُنْتُ أحياناً أَغدُرُ بها مُتعمِّداً إثارتَها، فتُحذِّرُني مَثنى و**ثُلاثَ**، حتّى إذا ما شَدَدْتُ على يَدِها أَكثرَ فأَكثرَ، أو حاولْتُ أنْ أنتزعَ الشَّعرَ الأبيضَ مِن رأسِها ـ وشعرُها كلُّه أبيضُ! ـ لِتَعودَ صبيّةً، زَعقَتْ بي، وأدارتْ وَجهَها إلى الحائطِ صائحةً:

ـ روحْ عَنّي وْلا! بطّلْتْ حِبَّكْ!

فأَتملَّقُها، وهي تُخفي رأسَها بِلحافِها أكثرَ فأكثرَ. ثُمّ أشعرُ باللّحافِ يَرتجفُ، فأَعرفُ أنّها تَضحكُ سِرّاً لِمُداعباتي، فأَتَجرّأُ، وأَكشِفُ اللّحافَ عَنها، وعِندَئذٍ يَنفضِحُ سِرُّها، فتُطلِقُها ضِحكةً عاليةً، وتَضمُّني، وأَضمُّها، ونَعقِدُ الصُّلحَ، وهو إلى **الهُدنةِ** المُوَقَّتةِ أَقرَبُ! كُنْتُ أُحبُّها وهي غاضبةٌ، وأُحبُّها وهي راضيةٌ؛ وإنْ كُنْتُ أَحياناً أُحبُّ أنْ أَغيظَها فلِكَيْ أنعمَ، بعدَ

ثُلاث: ثلاث مرّات.
أتملّقُها: أتودّدُ إليها وأتذلّلُ لها.
الهُدْنةُ: المصالحةُ، السّكونُ والدّعةُ.

قليلٍ، بنفحةٍ مِن فِردوسِ رِضاها.

وهَكذا لَم أبكِ في جدَّتي المادّةَ، والمَصلحةَ، والشَّبابَ، بلْ بَكَيْتُ فيها قَلباً طالَما حَضنَ قَلبي **وربَّتَهُ** كُلَّما أَصابَهُ مِن **نَوائبِ** الدّهرِ سَهمٌ. ولا تَسَلْ عَن نَوائبِ الأطفالِ والمُراهِقينَ وأَفراخِ الشَّبابِ، فما أَكثرَ ما يَخترعونَ مِنها وما يَتَفَنّنونَ، فإنَّ لهُمْ مِنها لَزاداً نَفْسيّاً يَحبُونَ إليْهِ كُلَّما **انتابَ** قلوبَهُمُ الفَراغُ: كُنْتُ أَحياناً أُحبُّ أنْ أَشعُرَ بأنَّني مَظلومٌ في المدرسةِ، أو بأنَّني، كأكثرِ الأنبياءِ، غريبٌ بَينَ بَني أمّي، أو بأنَّ أَهلي يُجاوِزونَ الحدودَ الّتي رَسمَها لهُمْ حَقُّ الأُبوّةِ والأُمومةِ. كُنْتُ أُحبُّ أنْ أَشعُرَ بهَذا وإنْ كُنْتُ، ضِمناً، أَعترفُ أَحياناً **بخِلافِهِ**؛ فقدْ كُنْتُ أُصرُّ على الشَّكوى لأنّني أَلمُسُ أنَّ الشُّعورَ بالمُصيبةِ يَسُدُّ في نَفْسي نَقصاً،

ربّتَ الولد: ضرَبَ جنبَهُ أو كتفهُ ضرباً خفيفاً لينام، والمقصودُ هنا هدّأ القلبَ وأشعرهُ بالاطمئنان.

النّوائبُ: المصائبُ.

انتاب: أصاب.

بخلافه: بضدّه، بنقيضه.

أو يُبرِّرُ في أَعمالي عَجزاً، أو، خُصوصاً، يَجعلُني أبدو، في عَينِ نَفْسي على الأَقلِّ، شَخصيّةً ذاتَ وزنٍ، لا هَمَّ للنّاسِ **وللحِدْثانِ** إلّا الكَيدُ لها والنَّيلُ مِنها. وكُنْتُ **أَلوذُ** بِجَدَّتي صامِتاً، فأَجلِسُ على حافَةِ سريرِها، وأُطوِّقُها، فتَبتسِمُ، ثُمَّ تَتحسَّسُ يَدي، حتّى إذا ما لامسَتْ يَدُها شَعري الكَثيفَ عَرفَتْ أنّني أنا، والتَمعَتْ عَيناها، وقالَتْ **بغِبطةٍ**: «تُقْبُرْني! هَيْدا إنْتْ؟». ثُمَّ أَراني مُنطلِقاً في الإفصاحِ عمّا **يَعتَمِلُ** في قَلبي، وأنا واثِقٌ بأنّها لَن تَفهمَ مِنَ القضيّةِ شيئاً كثيراً، ومعَ هَذا أَرتاحُ إلَيْها، وأَرتاحُ إلى قَرارِها تُصدِرُه مِن غيرِ تَفَلسُفٍ **مُتَكلَّفٍ** أو وَعظٍ مُملٍّ:

ـ ما عْلَيْش كابْني. روِّقْ بالَكْ. ما فيشْ ولا طَبْعَه إلّا قْبالْها نَزْله.

الحِدْثانُ والحَدَثانُ النّوائبُ وتقلُّباتُ الزّمن.
ألوذُ ألجأُ وأحتمي.
الغبطةُ المسرّةُ وحُسْنُ الحال.
يعتملُ يتفاعلُ
مُتكلَّفٌ فيه تصنُّعٌ، غيرُ عفويٍّ أو طبيعيٍّ

كُنْتُ أَنتظرُ ليلةَ الغِطاسِ كما يُنتَظَرُ تَحقيقُ الوعدِ الحُلوِ. وليلةُ الغِطاسِ وعدٌ لا أَحلى ولا أَطْيبُ! ذلكَ أنَّ تَحقيقَهُ **يَحفِلُ** بما طابَ مِنَ الأَكلِ وبما لَذَّ مِنَ **السَّمَرِ**. فبَيْنا كُنّا في اللّيالي العاديّةِ نَنامُ وقتَ نَومِ الدَّجاجِ، على **مَضَضٍ**، كُنّا في ليلةِ الغِطاسِ نَسهرُ ما حمَلَتْ وَطأةَ السَّهرِ أجفانُ الجَدَّةِ. ولِهذه اللّيلةِ طُقوسٌ خُلِطَ فيها الدِّينُ بالخُرافةِ وبالبُطونِ. وكُنّا نَبدَؤُها بأَنْ تَقْليَ جَدَّتي الزَّلابِيَةَ والعَوّاماتِ، ونحنُ حولَ الزَّيتِ المُبَقْبِقِ نَأكلُ الحَلوى بأَعْيُنِنا؛ حتّى إذا ما فَرَغَتْ أَكلْنا مِنها الحبَّةَ أو الحبَّتَيْنِ، لا أكثرَ، وتَحفَّزْنا للنُّقطةِ التّاليةِ في البرامجِ، وجَدَّتي تَلعنُ الأولادَ الّذينَ يُطالبونَها في كلِّ مرّةٍ بالأَكلِ، حتّى إذا ما تَعبَتْ به وقَتَلَتِ السّاعاتِ تَوَلَّوْا عَنْه بطَرفةِ عَينٍ تاركينَهُ **لِلكَسادِ**.

وتَحُلُّ الخُطوةُ التّاليةُ. تأتي جَدَّتي بخميرةٍ أُعِدَّتْ

يَحفِلُ: يَمتلئُ.
السَّمَرُ: الحديثُ لَيلاً.
المَضَضُ: الألمُ والتَّضايُقُ.
الكسادُ: بقاءُ البضاعةِ مِن غيرِ إنفاقٍ لعدمِ رغبةِ النّاسِ فيها.



للمُناسبةِ، وتَنُفُّها بعدَ أنْ تَضعَ فيها بعضَ القروشِ البيضاءِ المَثقوبةِ، ثُمّ نَعمَدُ جميعاً إلى تغطيسِها مُنشِدينَ: «**باعتمادِكَ يا ربُّ في نهرِ الأُردنِّ، ظَهَرَتِ السَّجدةُ للثّالوثِ...**» حتّى إذا ما سألْنا جَدَّتي عَنِ السَّجدةِ ما تَكونُ، ابتسمَتِ ابتسامةَ الظَّفَرِ، ابتسامةَ مَن يَعرفُ أمراً لا تَعرِفُه أنْتَ، واستمهلَتْنا إلى ما بعدَ تعطيسِ الخميرةِ. ونُسرِعُ في التّعطيسِ، و**نَسْلُقُ الإنشادَ سَلقاً**، ونَغسِلُ أَيدِيَنا ولا نَعسِلُها، ونَسبِقُ جَدَّتي إلى الغرفةِ، ونَنتظِرُها على أحرَّ مِنَ الجَمرِ في سريرِ أَحدِنا. كُنّا نَشعُرُ بأنَّ الوقتَ قدْ فاتَ، وبأنَّ جَدَّتي غائبةٌ عَنّا مُنذُ دهرٍ، ونَشعُرُ أَحياناً بأنَّها تَتأَخَّرُ عَنّا لِتَزيدَ فينا الشَّوقَ، ولِتَزيدَ نفسَها **خُطورةً**، فنُناديها، وهي تُجيبُ ببُرودةٍ، كأَنْ لا انتظارَ ولا مَن يَحزَنونَ:

باعتمادك يا ربُّ ترتيلةُ عيدِ الغِطاسِ عندَ طائفتَي الرّومِ الأورثوذُكسِ والرّومِ الكاثوليكِ.

نسلُقُ الإنشادَ سلقاً تعبيرٌ عاميٌّ يعني أنّنا نُسرِعُ في الإنشادِ من دونِ العنايةِ أو اتّباعِ الأصولِ.

الخطورةُ الأهمّيّةُ والشّأنُ.

- يا اللهُ، جايي...

ونَسمعُ النَّغمةَ مَـرّةً، ومَـرّةً، وتَثورُ كرامتُنا لِهَذا التَّجاهُلِ الفاضحِ. وتَحتقِنُ الدِّماءُ في وَجهي، على صِغَري، وأرمي جَدّتي بكُلِّ تُهمةٍ، وأُقرِّرُ أنَّ **الإدلالَ** يَتحوّلُ إلى لؤمٍ أو ظلمٍ متى استغلَّهُ القادرُ القويُّ، وجَدَّتي قادرةٌ قويّةٌ! ثُـمَّ إنَّهُ لَمِنْ شأني، أنا وَحدي، أنْ أَنقِمَ على جَدَّتي، فأنا رئيسُ السِّنِّ في إخوَتي. ثُمَّ نَسمعُ بابَ المطبخِ يُفتحُ ثُمَّ يُغلقُ، ونَسمعُ خُطىً لها في قلوبِنا **جَرْسٌ** فارقٌ؛ ونقولُ، لَستُ أدري لِمَنْ، بعضُنا لِبَعضٍ، أمْ لأَنفُسِنا، أمْ لِمُجرَّدِ أنْ نقولَ:

- إجِتْ، إجِتْ...

ثُمَّ نَغوصُ في الفراشِ، بعضُنا فوقَ البعضِ الآخَرِ، ونَروحُ في ضَربٍ ورَفسٍ ودغدغةٍ، فكأنْ لا سبيلَ إلى إعلانِ البِشْرِ بالبَهجةِ المَوعودةِ إلّا هَذا. ونَسكُنُ إذْ تَتخطّى جَدَّتي عَتبَةَ الغرفةِ، ونَقطعُ الأنفاسَ، **ويَرينُ**

الإدلالُ: المُبالغةُ في التَدلُّلِ والتَغنُّجِ.

الجَرْسُ: الصَّوتُ.

يَرينُ: يُسيطرُ، يَغلبُ.

على الجوِّ صَمتٌ مُطبِقٌ: نحنُ لنا في صَمتِنا خِطّةٌ، وهي أنْ نَخدعَ الجَدّةَ فنوهِمها بأنّا نِيامٌ، وهي لها في صَمتِها خِطّةٌ تَرسُمُها وتُنفِّذُها مِن فورِها: إنّها لا تَلبَثُ أنْ تَقترِبَ مِنَ السّريرِ وتَنحنيَ فوقَهُ، فنَسمعُها تَضحكُ ضَحِكاً مَكبوتاً، ثُمّ تقولُ مخاطِبةً نَفْسَها، ورافعةً صوتَها بقَدْرٍ يُمكِّنُنا مِن أنْ نَلتقِطَهُ:

ـ ناموا الشّياطينْ. وأنا كمانْ راحْ نامْ. على خيرةْ اللهْ!

وما إنْ تُطفِئُ الضّوءَ، ونَسمعُ صريرَ سريرِها، حتّى نُدركَ أنَّ الأمرَ أقبلَ بعدَ الخمرِ، وأنَّ الفخَّ الّذي نَصَبناهُ يَكادُ يُطبِقُ علَينا. ويَزيدُ في هَولِ المَوقفِ أنّنا نَسمعُ جَدّتي تُصلّي، فنَخافُ أنْ تَنتهيَ السّهرةُ هُنا، وهي سَهرتُنا، وأنْ نَنامَ، كما في العادةِ، معَ الدّجاجِ؛ فنَهُبُّ هبّةً واحدةً، ونُشعِلُ الضّوءَ، ونَزحفُ على سريرِ جَدّتي... ويا لَهَولِ ما نَرى! نَرى جَدّتي تَهتزُّ

المُطبِقُ: العامُّ الشّامِلُ.
مِن فَورِها: حالاً بِلا إبطاءٍ.

ضَحِكاً ووَجهُها في الوسادةِ، فيَنظرُ بعضُنا إلى البعضِ الآخَرِ، ونُدرِكُ أنَّ جَدَّتي أصابَتْ هَدفَيْنِ: فقدْ **أَحبَطَتْ** مؤامَرتَنا، وأَوقعَتْنا في فَخِّها! ولَكِنّا، على أيِّ حالٍ، نَحمَدُ اللهَ على أنَّ السَّهرةَ لَم تَنتهِ. وسُرعانَ ما يَتبدّدُ كلُّ أَثرٍ للثَّورةِ، وتعودُ الدِّماءُ الفَتيّةُ إلى مَجاريها بعدَ **احتقانٍ** وتَرتسِمُ حَولَ جَدَّتي، مِن جديدٍ، **هالَتُها** القِدّيسةُ، وتَعبَقُ حَولَها **الأَرائجُ** الذَّكيّةُ؛ فإذا هي، كما هي دائماً، **فَيضٌ** نورانيٌّ عارِمٌ. وتَحولُ فينا إشارةٌ خَرساءُ، غَيرُ مَنظورةٍ، فنَقفِزُ قِفزةَ الرَّجلِ الواحدِ، ويَنعقدُ المَجلسُ في سريرِ جَدَّتي. وإِذْ نُلحُّ علَيها، بالنَّظرِ، تَفهمُ أنّنا نَنتظرُ جوابَها عَنِ السّؤالِ الّذي طَرحناهُ في المطبَخِ، حَولَ السَّجْدةِ، فتَقعُدُ استعداداً، وتُمدّدُ اللِّحافَ على رِجلَيْها ووَسَطِها

أحبطتْ أفشلتْ، أفسدتْ

الاحتقانُ الاحتباسُ

الهالةُ دائرةُ النّورِ الّتي تُحيطُ بالرّأسِ كما في صُورِ القدّيسينَ.

الأرائجُ مفردُها الأريجُ وهو الرّائحةُ الطّيّبةُ.

الفَيضُ: الدَّفقُ.

وصَدرِها، وتَطرَحُ مِعطفَها على كَتِفِها، وتَشرَعُ في القِصّةِ.

كانَتْ تقولُ إنَّ السَّجدةَ تَعني سجودَ الشَّجَرِ ليلةَ الغِطاسِ: الصَّنَوْبرُ، والسّندِيانُ، والبُطمُ، والزَّعرورُ، كلُّها تَركعُ لاستقبالِ المسيحِ... إلّا التّوتَ، فإنَّهُ **يَتجبّرُ**، **ويَصولُ**، ويَبقى واقفاً، ولِذا يَتعذّبُ كثيراً في نارِ المَواقدِ. وهَلْ أَدلُّ على رُكوعِ الشَّجرِ مِن حادثةِ سَعْدى؟ كانَتْ سَعْدى عائدةً معَ زَوجِها ليلةَ العِطاسِ مِن زيارةِ أَهلِها في قريةٍ مُجاوِرةٍ، فتَعبَتْ، وقَعدَتْ على شَجرةٍ مُمدَّدةٍ على الأرضِ. وكَمْ كانَتْ دهشةُ زَوجِها بالغةً حينَ رآها في رأسِ صَنوبرةٍ جبّارةٍ! كانَتِ الصَّنَوبرةُ راكعةً، ثمَّ مرَّ المسيحُ، فعادَتْ إلى انتصابِها حاملةً معَها سَعْدى!

ونَتورَّعُ عِندَ ذكرِ المسيحِ، وكأنَّنا نَفطَنُ إلى أمرٍ:

يتجبّرُ: يتكبّرُ ويُجاوِزُ الحدَّ.
يصولُ: يسطو ويقدِرُ ويقْهرُ.
نتورَّعُ: نُبدي التّقوى والخشوعَ.

فالمرحلةُ الأخيرةُ مِن ليلةِ العِطاسِ تَنتهي بمشاهَدةِ المسيحِ، وهَذه المشاهَدةُ وضعَتْ لها جَدَّتي شروطاً، ذلكَ أنَّ في يدِها أنْ نَرى المسيحَ، وفي يدِها أنْ لا نراهُ! ونَتهيّأُ، وهذا هو الشَّرطُ الأوَّلُ، ونَعقِدُ أَيديَنا على صدورِنا، وهَذا هو الشَّرطُ الثّاني، ثُمَّ نُصلّي في أعماقِنا، ونَطلُبُ إلى اللهِ أنْ يَحفظَ لنا أهلَنا أجمعينَ. أمّا الشَّرطُ الرّابعُ والأَهمُّ فهو أنْ نَعِدَ اللهَ بأنْ نكونَ دائماً عاقِلينَ، وبأنْ لا نَرفُضَ لجَدَّتي رَغبةً، لا جَدَلَ ولا مُداوَراتِ! ولا تَكتفي جَدَّتي بأنْ نَعِدَ اللهَ بهَذا، فهي تُريدُ أنْ تتيقَّنَ بنَفْسِها، ولِذا تَفرِضُ علَيْنا الوظائفَ والأعمالَ لِما تَبقّى مِنَ السَّهرةِ، أو لليَومِ التّالي، وحتّى لعِدّةِ أيّامٍ مُقبِلةٍ، خشيةَ أنْ يَقشَعَ عَنّا مفعولُ السِّحرِ في الغدِ، فنعودَ إلى إنكارِ ما كانَ مِنّا، وإلى الجَدَلِ والمداوَرةِ؛ ونحنُ كعَمالقةِ الأساطيرِ تُديرُنا جَدَّتي بخاتَمِها السِّحريِّ. وهُنا تَعِدُنا جَدّتي بالمُشاهَدةِ المَرجُوَّةِ القريبةِ، فتَنطلقُ

المُداوَراتُ: المُناقشاتُ والمُعالَجاتُ.
تيقَّنَ الأمرَ: عَلِمَهُ وتَحقَّقَهُ.

أبصارُنا عَبْرَ الزُّجاجِ بحثاً عَنِ المسيحِ، فلا تَقعُ إلّا على الماءِ المُتساقِطِ مِنَ السّماءِ، أو على الأضواءِ المُتَراقصةِ في البيوتِ المُواجِهةِ. ونَستأذِنُ جَدّتي في الاقترابِ مِن زجاجِ النّافذةِ، فتأذَنُ، ونَرفعُ طَرْفَنا إلى السّماءِ، إلى دَربِ المسيحِ، ونَنتظِرُ، ونَمسحُ بَينَ **الفَيْنَةِ** والفَيْنةِ ما عَلِقَ على الزّجاجِ مِن غِشاوةِ الأنفاسِ... ولا يَطولُ الارتقابُ، ذلكَ أنَّ المسيحَ أشدُّ تَشوُّقاً إلى رُؤيتِنا مِنّا إلى رُؤيتِهِ. وتَلتمِعُ في الفضاءِ بَوارقُ يَتبعُها الرَّعدُ، أو يَعكسُ النّورُ على زجاجِ نافذةٍ تُغلَقُ أو تُفتَحُ عندَ الجيرانِ، أو يُضيءُ لنا الوَهمُ في الخاطرِ شيئاً ما، ونُشاهدُ المسيحَ! نُشاهدُه بَرقاً، ورَعداً، وانعكاسَ نورٍ، وصَوتَ نافذةٍ، ووَهماً! إنَّهُ مِلءُ النَّظرِ، ومِلءُ السَّمْعِ. ونَرسُمُ إشارةَ الصّليبِ تَبارُكاً، ويَغمُرُ الإيمانُ قلوبَنا، ونَذوبُ **وَجْداً** بالمسيحِ وبأفرادِ عائلتِهِ، ونُوجّهُ إليهِم طائفةً مِنَ الطَّلَباتِ والرَّغَباتِ! ثمّ نَتراجعُ عَنِ

الفَينةُ: الحينُ والسّاعةُ.
الوَجدُ: شدّةُ الحُبّ.

النّافذةِ إلى أَسِرّتِنا، وتُلْحِفُنا جَدّتي، ونَتمنّى لها وبَعضُنا لبَعضٍ ليلةً سعيدةً، ونَنامُ...

بَيدَ أنّ ليالِيَ السّنةِ لَم تكُنْ كلُّها كَنَيْبةِ الغِطاسِ، بل لَم تكُنْ أيٌّ مِنْها مثْلَها. كُنْتُ أَخافُ مِنَ اللّيلِ، وأَخافُ مِنَ النَّومِ، لأَنّني أَخشى الغَدرَ والطَّعنَ في الظَّهرِ؛ واللّيلُ والنّومُ، في نَظري، **حافلان** بالغَدرِ والطَّعنِ في الظُّهورِ. والذّنبُ في جُبْني ليسَ ذَنْبي، بلْ ذَنْبُ أهلي الّذينَ كانوا يُشيعونَ فيَّ الرُّعبَ إذْ يوهِمونَني بأنَّ غُرفةَ الاستقبالِ الدّاخليّةَ حافلةٌ **بالغيلانِ** والشّياطينِ، وذَنْبُ المدرسةِ الّتي لقّنَتْني، معَ مَبادئِ الفَرنسيّةِ والإنكليزيّةِ، أُصولَ الرُّعبِ التّامِّ. فقدْ قرأْنا قصّةً بالفَرنسيّةِ عَن **عانسٍ** جاوزَتِ السّبعينَ، غَنيّةٍ، اختبأَ أحدُ خُدّامِها ليلةً تحتَ سريرِها، وقتلَها في اللّيلِ. وقَرأْنا قِصّةً بالإنكليزيّةِ عَن رَجلٍ يَرتجفُ خَوفاً في سريرِهِ وهو يَرى شَبَحاً يَروحُ

حافلان: مليئان.
الغيلانُ: مفردُها الغولُ: حيوانٌ لا وجود له يُخوَّفُ به الصّغارُ والضّعافُ.
العانِسُ: الفتاةُ الّتي كبِرَتْ في السّنِّ ولَم تتزوّجْ.

ويَجيءُ في غُرفتِهِ مِن غَيرِ وازعٍ، فسَدَّدَ مُسدَّسَهُ إلى الشَّبحِ وأمرَهُ بالاقترابِ، والشَّبَحُ مُسترسِلٌ في غَيِّهِ؛ فما كانَ مِنْه إلّا أنْ أطلقَ علَيْهِ رصاصةً، فإذا الشَّبَحُ - الضَّحيَّةُ إحدى أَصابعِ رِجلِهِ الَّتي كانَتْ بارزةً مِن تحتِ اللِّحافِ!

وكانَ مِن أثرِ هذه القِصصِ وأمثالِها، ومِن وَحيِ الغيلانِ والشَّياطينِ في غُرفةِ الاستقبالِ الدّاخليّةِ، ومِن ضَغطِ ما كُنّا نَسمعُه عَنِ اللّصوصِ والمُجرمينَ، أنَّ خَيالي راحَ يُضخِّمُ الحَوادثَ، ويُضيفُ إلَيْها ما ليسَ فيها، ويَبني علَيْها حَوادثَ وَهْميّةً قدْ تَحدُثُ إذا ما تَشابهَتِ الظُّروفُ والمقدِّماتُ. أمّا الأثَرُ المباشِرُ في نَفسي، فهو أنّني كنْتُ أُغافِلُ أهلي قبلَ النَّومِ، فلا أَتركُ سريراً إلّا وأُفتِّشُ تحتَهُ، ولا أَدَعُ خِزانةً إلّا وأَفْتحُها وأَتحسَّسُ الثّيابَ الّتي فيها. وإذْ أَستَلْقي في الفراشِ، وتُطفَأُ الأنوارُ في البيتِ، يَشرعُ العرَقُ يَتصبَّبُ منّي؛ ويَزيدُه تَصبُّباً أنّني أَرفعُ اللِّحافَ إلى ما فوقَ رأسي حتّى في أشدِّ

الوازِعُ: المانِعُ، الرّادِعُ.
الغَيُّ: الضَّلالُ والجهلُ.

الأيّامِ قَيظاً، ولا أنامُ... ويتحرّقُ قلبي: والدي **يَغُطُّ** في الغُرفةِ المُجاورةِ، وجَدّتي تَغُطُّ في السّريرِ المُجاوِرِ، وجارُنا الّذي لا يَعودُ إلى بيتِهِ إلّا بعدَ انتِصافِ اللّيلِ قدْ عادَ؛ سمِعْتُه يُغلِقُ بابَ السّيّارةِ، وسمِعْتُ وَقْعَ قَدَمَيْهِ على السُّلَّمِ؛ وساعةُ الجيرانِ البغيضةُ أَسمعُ تكّاتِها، وأسمعُ، كلَّ نِصفِ ساعةٍ، دقّةً مِن دقّاتِها، مُفردَةً حيناً، وجَماعيّةً حيناً، فيُخيّلُ إليّ أنّ الكَونَ كلَّهُ قدْ نامَ، وأنّني وحدي **مُسَهَّدٌ**، سُمّاري السّاعةُ، والغَطيطُ، والأوهامُ. ويَحمِلُني خَيالي مِن عالَمٍ إلى عالَمٍ، ومِن حادثةٍ إلى حادثةٍ، ومِن جريمةٍ إلى جريمةٍ، ويَسيلُ في ظَهري فجأةً ماءٌ مُثلَّجٌ؛ ذَلكَ أنَّ شَخصاً قدْ دخلَ الغُرفةَ: لم أرَهُ لأنَّ وَجهي يَكادُ يَخترقُ الحائطَ، ولكِنّني أَحسسْتُ بهِ يَقتربُ ويَقتربُ، ويُحاولُ أنْ يَطعنَني في ظَهري. ليتَ الوقتَ نهارٌ فأُلقّنَهُ درساً لا يَنساهُ! ولكنَّهُ، كاللّيلِ، غَدّارٌ جَبانٌ، يَستغلُّ حلولَهُ ليُضايقَني. ثُمّ يَعودُ العَرَقُ

يغُطُّ: ينْخُرُ أي يشخرُ في نومه.
مُسهَّدٌ: أرِقٌ، غيرُ قادرٍ على النّوم.

اللَّزِجُ محلَّ الماءِ البارِدِ. ويَسرَحُ خَيالي في أُمورٍ ما وراءَ الطّبيعةِ، فأُفكّرُ في اللهِ قليلاً، وأُفكِّرُ في الموتِ كثيراً. أُفكِّرُ في الشّابِّ الرّياضيِّ الوَسيمِ الّذي ماتَ مُنذُ أيّامٍ، فشيَّعْتُه معَ بعضِ رُفقائي مِن بيتِهِ إلى مَدفَنِهِ، ووقَفْنا فوقَ القبرِ تماماً، قبلَ الأهلِ، نَرى إلى وَجهِهِ المُزْرَقِّ وصَدرِهِ المَنفوخِ؛ وأُفكِّرُ في أُمّي: تُرى، ماذا لو ماتَتْ؟! وتُلِحُّ عليَّ الفِكرةُ، وتَجلِدُني، فلا أَستطيعُ لِآلامي النَّفْسيَّةِ تحمُّلاً؛ ويَتغلَّبُ خَوفي على أُمّي على خَوفي مِن غَدرِ الظّلامِ، فأَنهَضُ إلى غُرفةِ أُمّي حيثُ الإبريقُ، وأَتظاهرُ بأنَّني أَشرَبُ، وأَتعمَّدُ أنْ أُثيرَ بالإبريقِ ضجّةً على مَقعدِهِ؛ فتُفيقُ أُمّي مذعورةً، فأُبادرُها بأنَّني أُريدُ أنْ أنامَ إلى جانبِها، فتُذعِنُ بسهولةٍ، على خِلافِ جَدَّتي الّتي كانَتْ تَرفُضُ هَذا الأمرَ رفضاً جازماً لا يَقبلُ المُساوَمةَ. وإذْ أَطمئنُّ إلى وجودِ أُمّي،

اللَّزِجُ: الدَّبِقُ الّذي يلصقُ باليد.
نرى إلى: ننظرُ إلى.
تُذعِنُ: تخضعُ وتنقادُ.

تَهدأُ شُجوني قيلاً، ولَكنَّ فِكرَةَ الموتِ تُعيدُ الكَرَّةَ، فأَبكي، وتَشعرُ أُمّي بهَدا، فتُذعَرُ، ولَكنّي أَقطعُ علَيْها مَجالَ التّساؤلِ بقَوْلي:

ـ ماما، بْخافْ تْموتي...

وتَبكي أُمّي حناناً، وتَضحكُ، وتُهدّئُ مِن رَوْعي، وتَضمُّني، فأَرتاحُ! لعلَّني كنْتُ فَيلسوفاً، أو لعلَّني كنْتُ حماراً، أو لعلّني كنْتُ الاثنَيْنِ معاً، مَن يَدري؟ فكثيراً ما يَتفرَّعُ النَّقيضانِ عَن أَصلٍ واحدٍ ليَعودا فيَتَجاوَرا!

ولكنَّ البُعبُعَ الأكبرَ كانَ يَذُرُّ قَرْنُهُ عندَما يَحرُجُ والداي لَيلاً في زيارةٍ. كُنْتُ إذا سمِعْتُهما يَتباحثانِ في أمرِ مِثلِ تلكَ الزّيارةِ أَثورُ، وأَبكي، أو أُزيّنُ لهُما أنَّ البقاءَ في البيتِ لَيلاً أَفضلُ وأَكملُ! وإذْ لا تَنفعُ تَوَسُّلاتي أو تَهديداتي، أُسلِّمُ أمري إلى القلقِ الّذي كانَ يَتسرَّبُ إليَّ مِن خَيالي، وبخاصّةٍ مِن تلكَ النّافذةِ المُطِلّةِ على الشُّرفةِ الخفيّةِ وعلى سطحِ الجيرانِ

الشّجونُ: الهُمومُ والأحزانُ.
يَذرُّ قرنُهُ: يَنبُتُ ويُطلُّ أوّلُه، يَظهرُ.

المُنخفِضِ إلى عُلوِّها. كُنْتُ أَنظرُ مِن سريري إلى النّافذةِ أَحياناً، فكأنّها الضَّبُعُ تَسْحَرُ ضَحيّتَها وتَجرُّها إلى وَجْرِها وتَفتُكُ بها. وجَدَّتي غارقةٌ في نَومِها تَفتحُ فمَها الخاليَ مِنَ الأسنانِ، بِشكلٍ مُستديرٍ، وتُطلِقُ مِنْه الصَّفّاراتِ الحادّةَ والشَّخيرَ المتقطِّعَ والهَمْهَمةَ الفَوْضَويّةَ وغَيرَها مِنَ الأنغامِ. وَيْحي أنا! وَيْحي مِن نَفسي وخَيالي إذا ما بَقيتُ وَحدي في فِراشي، ووَيْحي مِن جَدَّتي إذا ما راوَدَتْني فِكرةُ اقتحامِ فراشِها! جَرّبْتُ هَذا مرّاتٍ أَثناءَ وُجودِ أهلي في البيتِ، لعَلّي أُروِّضُها تَدريجيّاً، فكانَ رَصيدي الفَضيحةَ: لقدْ أطلقَتْ جَدَّتي مرّةً الصَّيْحاتِ إذْ أَحسَّتْ بي قُربَها، وهي نِصفُ نائمةٍ ونِصفُ مُستيقظةٍ، فأَفاقَ مَن في البيتِ وهَرعوا إلى غُرفتِنا، وكُنْتُ في أَثناءِ ذلكَ قدِ انسحَبْتُ إلى فِراشي وتظاهَرْتُ بالنّومِ، فاعتقدَ الجميعُ أنَّ جَدَّتي تحتَ

الوَجْرُ: الجحرُ، مكانٌ كالكهفِ.
الهَمْهَمةُ: الكلامُ الخفيُّ غيرُ المفهومِ.
وَيْحي: وَيْلي.

وطأةِ كابوسٍ! ولمّا أعـدْتُ التّحدّيَ عادَتْ جَدَّتي إلى الاستجابةِ السّابقةِ، فوقعَتِ الواقعةُ هَذهِ المرَّةَ، وافتَضَحَ أمري، فأنّبني والدي، وكُسيتُ عاراً **جَلْبَبني رِدَحاً**. ومرّةً، بينَما كانَ أبي وأُمّي خارجاً، وكنْتُ أنا في حالِكٍ مِنِ اضطرابي، عقَدْتُ النّيّةَ على تنفيذِ الفِكرةِ: نَهضْتُ مِن سَريري وسْطَ الظُّلمةِ، واقتربْتُ مِن سريرِ جَدَّتي، وعاينْتُ فمَها جيّداً، وحَدّدْتُ موقعَهُ تماماً، ثُمَّ أَطبقْتُ علَيْهِ بيَدي، وقفَزْتُ خلْفَ جَدَّتي الّتي تَململَتْ مَذعورةً، بينَما كَتمَتْ يَدي صُراخاً **وإعوالاً** لَم تَكتمِلْ ولادتُهُما! ورُحْتُ أهمِسُ في أُذنِ جَدَّتي رَجاءً مُستميتاً أنْ تَسكُتَ، وأنْ **تَرضَخَ** للأمرِ الواقعِ، وأنْ تُشفِقَ، فأثَّرَتْ كَلِماتي بعدَ **لأيٍ**، أو هي الصَّدمةُ جعلَتْها تَلينُ، فعانَقَتْني بعدَ خِصامٍ، ونِمْتُ ليلَتي تلكَ

جلْببني: ألْبسني الجِلباب وهو الثّوبُ الواسعُ.
رَدحاً: مُدّةً طويلةً.
الإعوالُ: رفعُ الصَّوت بالبكاءِ والصِّياحِ.
ترضخُ: تخضعُ.
اللأْيُ: الإبطاءُ في التّلبيةِ، وبَذلُ الجُهدِ.

ووَجهي إلى وَجهِها... إلّا أنّهُ كانَ عليَّ، كلّما فكّرْتُ في المشروعِ نفسِهِ، أنْ أعودَ إلى الخطّةِ عَيْنِها، لأنَّ جَدّتي رَفضَتْ بإباءٍ أنْ تَعترَ أنَّ ما حَصَلْتُ علَيْهِ أوّلَ مرّةٍ باتَ حقّاً مكتسَباً بمرورِ الزّمنِ!...

... وكَبِرَتْ جَدّتي، وكَبِرْنا... كَبِرَتْ، وهي لا تَعترِفُ مِنَ العُمرِ إلّا بِما كانَتْ علَيْهِ قبلَ عدّةِ سنواتٍ. كُنْتُ قُبَيلَ الحربِ الثّانيةِ أَسألُها:

- كَم عُمرُكِ يا ستّي؟

فتُجيبُ:

- شو بيعَرّفْني كابْني. سِتّينْ، سَبعينْ...

وبعدَ انتهاءِ الحربِ كنْتُ أَطرحُ عليْها السّؤالَ نفسَهُ، فتُجيبُ:

- سِتّينْ، سَبعينْ...

ولَم تُرِدْ أنْ تَزيدَ على اعترافِها يوماً واحداً!

كَبِرَتْ جَدّتي، وكَبِرْنا... واتّسعَتْ حَولَ رأسِها الهالةُ القدّيسةُ وتَبَلْوَرَتْ، وأدرَكْنا إدراكاً أعمقَ أنَّ حُبّنا لَم يكُنْ حُبّ الحاجةِ وحبَّ المنفعةِ، بل كانَ حبَّ

تَبَلْوَرَتْ: صارَتْ نقيّةً وشفّافةً كالبّلّورِ.

الإنسانِ في الإنسانِ وحُبُّ الشّيخوخةِ العَطِرةِ. لقدْ عَجَزَتْ جَدَّتي، وأَصبحَتْ رهينةَ القُعودِ، تَنهَضُ مِن فراشِها ويَدُ أَحدِنا عَيناها، وتَتوجَّهُ إلى الدّارِ فتَمكُثُ فيها دقائقَ، ثُمَّ نَعودُ بها إِلى مَقرِّها. ومعَ هَذا، أو لعلَّهُ مِن أَجلِ هذا، كانَ حُبُّنا يَقوى، وكانَتْ حاجتُنا إلى قُربِها **ما تَفتَأُ** تَزدادُ، فنَخافُ أنْ **نُعدَمَها**، ونُشدِّدُ علَيْها الحراسةَ، ونُضاعفُ العِنايةَ. وكانَتْ تُفضِّلُ بينَ كلِّ ما نَبذُلُه في سبيلِها أنْ أُجالسَها، فلَم أكُنْ بهَذا **ضَنيناً**، ولَم أكُنْ به أَسيراً. كُنْتُ إذا ما جلسْتُ على حافَةِ سريرِها أَشعرُ بأنَّ حِملاً قدْ زُحزِحَ عَن كَتِفي، وبأنَّ انفراجاً قدْ طرَأَ على أعماقي. وتَتَحسَّسُ يَدي، وتَعرِفُني، وتَبدأُ عمليّاتِ الِاستِنْطاقِ...

كانَتْ فَرحتُها عظيمةً حينَ بدأْتُ عَملي؛ فقدْ كانَتْ، مُنذُ عهدٍ بعيدٍ، تَنتظِرُ بفارغِ الصّبرِ أنْ أَمُدَّ إلى

ما تفتأُ: ما تزالُ.
نُعدَمُها: نفقدُها.
ضنيناً: بخيلاً.

أبي يدَ المساعَدةِ، وأنا أُحيِّبُ رجاءَها كلَّ سنةٍ، فلا تَسألُني عَنِ العملِ الّذي أنوي القيامَ به حتّى أُجيبَها بأنّي سأُتابعُ دِراستي، فلا تَتمالَكُ مِن أنْ تقولَ:

ـ حاجْتَكْ بَقى. ساعِدْ بيّكْ شوَيْ.

ولكنّي أُبيِّنُ لها بالبُرهانِ أنَّ البَكالوريا (عبثاً حاولَتْ جَدّتي أنْ تَلفِظَ بِهَذه الكَلمةِ على حَقيقتِها، فما كانَ مِنْها إلّا أنِ استَسْلَمَتْ وسمَّتْها: شو بيقولو لْها... فتَسألُ مثلاً: خلِصْتْ مِن هالشّو بيقولو لْها؟ أو: شو راحْ تَعمِلْ بَعدْ هالشّو بيقولو لْها؟...) لا تَكفي، وأنَّ عليَّ أنْ أتخصَّصَ، فتَهُزُّ رأسَها وتَقولُ: «آ، هلّقْ فْهِمْتْ»، مِن غيرِ أنْ تَفهمَ. ولِذا كانَتْ فَرحتُها عظيمةً لمّا بَدأْتُ أَعملُ، وبخاصّةٍ حينَ عَلِمَتْ أنّني أصبحْتُ معلِّماً! فراحَتْ في الحالِ تُخبِرُني، وتُعيدُ الإخباريّةَ غيرَ مرّةٍ، عَنِ المعلِّمِ سعيدِ الّذي كانَ يُعلِّمُ في القَريةِ عندَ نُشوبِ الحربِ الأولى، وعَنِ المعلِّمينَ «البروسْتانْت» الّذينَ فَتحوا مدرسةً لَم تُعمِّرْ أكثرَ مِن

سنةٍ، وعَنْ قَضيبِ المعلّمِ حَنّا الّذي كانَ **يُخلّفُ** على أرجُلِ الأولادِ آثاراً ناطقةً... وكانَتْ تُخبِرُني عَن أهلِ القَريةِ كيفَ كانوا يُكرِمونَ المُعلِّمينَ فيُقدِّمونَ لهُمُ الفاكهةَ والقمحَ والحطبَ والدِّبسَ والعَرَقَ والدَّجاجَ، ويُضيفونَهُم مُداوَرةً، وتَتمنّى أنْ يَعْمَدَ أهلُ تلاميذي إلى تقليدِ الأقدَمينَ. وأُحاولُ أنْ أُقنِعَها بأنَّ معلّمي اليومِ لَيْسوا كالمعلِّمِ سعيدٍ أو المعلِّمِ حَنّا، لا مِن حَيثُ الصِّنْفُ، والمسألةُ فيها نَظرٌ، بَل مِن حَيثُ الوَضعُ: المعلِّمُ اليومَ يَتقاضى راتِبَهُ مِنَ المدرسةِ لا مِنَ الأهالي، وراتِبي المُتَواضِعُ لا بأسَ به، فلا حاجةَ بي إلى الأكلِ والشُّربِ يَأْتيانني مِن غيرِ عَرَقِ جَبيني. و**تَضرِبُ صَفْحاً** عَنِ الهَدايا، وتَنتقِلُ إلى موضوعِ السّاعةِ: راتِبي. إنّها لا تَحترِمُه كثيراً، بدليلِ أنّها كانَتْ تَسألُني عَنْه كلَّ يومٍ، فأُجيبُها الجوابَ نفسَهُ دائماً، فتَقولُ: «بسْ؟». ثُمَّ تَسألُني عَن موعدِ الزّيادةِ، وعَن قيمتِها، فأُضطَرُّ

يُخلّفُ: يترُكُ وراءَهُ.

ضَرَبَ صَفْحاً عنِ الأمرِ: أعرضَ عَنهُ وتَركَهُ وجاوزَهُ.

إِلى أَنْ أُبالِغَ **جَبراً لِخاطِرِها**، ولِخاطري أيضاً، فتَفرِجُ أَسـاريرُها، وتَختَتِمُ المناقشةَ بـ «عـافـاكْ، تُقبْرْـي إنْ شا للّه».

ومرّةً كُنّا نَتحدّثُ عن شُجوني. كُنْتُ **أَبُثُّها أسراراً** ما أَحسَبُ أَنَّ غَيرَ قلبِها كانَ كَفيلاً بتَفهُّمِها. كُنْتُ أَشكو إِلَيْها بعضَ الذّئابِ، وأَشكو إِلَيْها الطُّرُقَ المُلتَوِيَةَ الّتي أَمْسَتْ في نظرِ الكثيرينَ **صِراطاً** مُستقيماً ليسَ إِلّاهُ صِراطٌ مستقيمٌ، فتَثورُ ثائرتُها، وتَحتدُّ، وتَتحزَّبُ لي ضِدَّ مَنْ أَشكو وما أَشكو، ويَرتفعُ صوتُها في الشِّجارِ كأَنَّها تَرى الأَشخاصَ والأَشياءَ أمامَها، فتُحاوِلُ أَنْ تَثِبَ بِهِمْ. ثُمَّ هَدأَتْ نفسُها، ورأَيْتُها، على غيرِ عادةٍ، **تُنكِّسُ** رأسَها، و**تَتجهَّمُ**، وكأَنَّ في خاطِرِها اضطراباً أو فكرةً. ولَم تَطُلْ دَهْشتي لأَنَّها ابتدرَتْني فجأةً:

جبرَ خاطرَ فُلانٍ: طيَّبَ خاطرَهُ، وكأنَّ الخاطرَ كانَ مكسوراً فأَصْلَحهُ.
أَبثُّها أسراراً: أُطلِعُها عليها، أُكاشِفُها بها.
الصِّراطُ: الطَّريقُ.
تُنكِّسُ: تَحني رأسَها نزولاً.
تتجهَّمُ: تعبسُ ويَكفهِرُّ وجهُها.

ـ نِحْنا وَيْن كابْني؟

ـ ماذا تَعنينَ بِـ «وَيْن» يا جَدَّتي؟

ـ نِحنا في «لِبنانْ» يَمّا في «سورِيّا»؟

فأُفهِمُها أنّنا في «لُبنانَ».

ـ نِحنا وْلادْ عَرَب يَمّا «تْراكْ» (هَكذا كانَتْ تُسمّي الأَتراكَ).

وأُفهِمُها أنّا عَرَبٌ ولَسْنا أَتراكاً، فتَنبَسِطُ نفسُها، وأَشرحُ لها خصائصَ الدّولةِ، وخصائصَ الوطنيّةِ، مُندفِعاً في الطّريقِ الّتي ارتضَيْتُها لنفسي، طَريقِ التَّعليمِ. ولا أَكْتُمُ أنَّ جَدَّتي كانَتْ أَذكى تلاميذي وأَقواهُم ذاكرةً، لأَنّها لَم تَنسَ الدّرسَ إلّا بضعَ مرّاتٍ فحَسْبُ!

والحقيقةُ أنَّ واقعَ التُّركِ في بلادِنا كانَ جُزءاً مِن واقعِ ذَلكَ الجيلِ الّذي انقطعَتْ بأَكثَرِهِ أسبابُ الحياةِ، أو لعلَّ واقعَ هَذا الجيلِ لَم يكُنْ إلّا **نَفَثاتِ** ذَلكَ الواقعِ التُّركيِّ. كانَتْ جَدَّتي تُطرِقُ قليلاً حينَ نَسأَلُها أنْ تُخبرَنا قصّةً، ثُمّ تَرفعُ رأسَها، وتَتنحنَحُ، ثُمَّ تَحني

النَّفَثاتُ: البَصَقاتُ، والمقصودُ هُنا المخَلّفاتُ.

ظهرَها، وتُدثّرُ يدَيْها بِحافِها أو بمِعطَفِها، وتَعودُ فتَتَنحنَحُ، وتَقولُ: «مِن زمانْ...». وكانَتْ قِصصُها تَدورُ على ما سَمعَتْ أو على ما خَبِرَتْ، ولعلَّ هَذا النَّوعَ الأخيرَ كانَ أَحبَّ إلى قلوبِنا وأدعى إلى استحابةِ رَغبتِنا. وكانَتْ جَدَّتي تَسرُدُ علَيْنا وقائعَ مِن حياتِها، فيُخيَّلُ إلَيْنا أنَّ الماضيَ يَنفُضُ عَنْه غُبارَهُ ويَنتصِبُ، وأنَّ الأشخاصَ الّذينَ تَصِفُهُم لَيسوا رُفاتاً بالياً، بَلْ هُم معَنا لَحمٌ ودَمٌ وروحٌ؛ حتّى إنّا كُنّا نَخافُ بَطشَ بطّاشيهِمْ، أو غَدرَ مجانينِهِمْ، أو هبوبَ جِنِّهِمْ، فنَتمثَّلُ الشّرَّ كلَّ الشّرِّ في بابٍ يُطقطِقُ مثَلاً. وكانَ «التّراكْ» يَحتلّونَ مِن قِصصِها الحَيِّزَ المرموقَ، فهُم مَوَّهوا البلادَ وشَغَلوا النّاسَ، فكانَ بديهيّاً أنْ يَملَؤوا القَريةَ الوادعةَ ويَشغَلوها. وكانَتْ جَدَّتي، حينَ تَقُصُّ علَيْنا قِصّةً مِن قِصصِ الحيّاتِ ـ هَكذا كانَتْ تُسمّي قِصصَ «التّراكْ» ـ

تُدثِّرُ: تُغطّي، تَلُفُّ.
الرُّفاتُ: الحُطامُ، كلُّ ما تكسّرَ وبَلِيَ.
الجِنُّ: مخلوقٌ مزعومٌ بينَ الإنسِ والأرواحِ.
الحَيِّزُ: المكانُ.

تَسترسِلُ في الحماسةِ، وتَحتشِدُ في وَجهِها رَواسبُ مِن دمٍ لا هو أحمرُ ولا هو أصفرُ، حتّى إذا ما بَلغَتْ مِن قِصّتِها **الذُّروَةَ** ضَربَتْ وَجهَها بِكَفِّها وقالَتْ:

- الله لا يْعيدْها هاكِ الأيّامْ. الله لا يْعيدْها... يِخرُبْ بَيْتُنْ ما كانْ أَظْلَمُنْ.

والحقيقةُ أنَّ **أَماراتِ** الِاحتقارِ لَم تَرتسِمْ أمامَ وَجهي يوماً، مثلَما كانَتْ تَرتسِمُ في وَجهِ جَدَّتي وفي كلامِها، حينَ تَتحدَّثُ «عَنْهُم»: كانَتْ تَستنزِلُ على رؤوسِهِم الوَيلاتِ، وهُمُ الّذينَ «شَمْشطوا» زوجَها إلى **المَجلِس العُرفيّ** وأَعادوهُ قِشرةً مِن جِلدٍ على عَمودٍ مِن عَظمٍ. وكانَتْ **تَرميهِم بالمَعاصي**، كلِّ المَعاصي، حتّى ولَوْ كانوا مِن بَعضِها **بَراءً**: فالجَرادُ مِن أعمالِهِم، والموتُ مِن أعمالِهِم، وإقفالُ بابِ البحرِ مِن أعمالِهِم...

الذُّروةُ: القِمّةُ، أعلى الشّيءِ.
الأَماراتُ: العلاماتُ.
المجلسُ العُرفيُّ: مكتبٌ للقضاء وإصدار الأحكام من غير محاكمة.
ترميهم بالمعاصي: تتّهمُهم بالمخالفات والتّمرُّد.
بَراءٌ: أبرياءُ (ولفظةُ «براء» لا تُثنّى ولا تُجمَعُ ولا تؤنَّثُ).

وعندَما تُنْهي سَرْدَ مَخازيهِم تَختُمُ كلامَها بهَذه الآياتِ، وقدِ احتقَنَ الِاحتقارُ في عينَيْها وشَفَتَيْها:

ـ اللهْ يِمْحَقْهُنْ... كِنّا نْطَعْميهُنْ كَمانْ... يِطْعَمْهُنْ كاساتِ العَمى!...

... وتَئِنُّ «البوسطةُ» أَنيناً حافِتاً، حَزيناً... إِنَّها تُدرِكُ أَنَّ دونَ القَريةِ أَربعينَ كيلومتراً، يَتسِمُ بعضُها مِضيافاً مُتهلِّلاً، ويَتجهَّمُ بعضُها مُزبِداً أَرعَنَ. ثُمَّ يَتعالى الأنينُ صُراخاً وعَويلاً، وإِذا العَويلُ مَناحةٌ، وإِذا زَعقةٌ تَطغى على ما في المَناحةِ من جَبةِ أَصواتٍ... ولِزَعقةِ المُحرِّكِ زَعقةٌ في قلبِ السّائقِ تَتَدحرجُ على شفتَيْهِ محموعةً مِنَ الشّتائِمِ المُختارةِ... ويَستحيلُ العَويلُ والصُّراخُ، كَرّةً ثانيةً، أَنيناً حافِتاً حزيناً... وما تَلبَثُ السّكينةُ أَنْ تُخيِّمَ. ولكنَّ الطَّنينَ ما يَزالُ يَملأُ أُذنَيْكَ، والغِشاوةُ ما تَزالُ حَيْرى على عَينَيْكَ. بَيدَ أَنَّ المَشهدَ

المخازي الأعمالُ المُعيبةُ والمُسبِّبةُ للعارِ.

الأرعنُ المتسرِّعُ الأهوجُ في كلامِهِ.

المناحةُ لمأتَمُ حيثُ يشتدُّ البكاءُ بصياحٍ وعويلٍ وجَزَعٍ.

الكرّةُ المرّةُ.

المألوفَ في ساحةِ القَريةِ يُشيرُ علَيْكَ أنِ انْهَضْ: فهَذه يدُ عسّافٍ تَخطَفُ الجريدةَ مِن يدِ المُعاوِنِ، وهَذه أصواتُ الأولادِ الّذينَ يَتسابقونَ لِتَّربُّعِ في مَقاعدِ السّيّارةِ الخلفيّةِ استعداداً للنُّزهةِ إلى العَينِ حَيثُ يَجري التّنظيفُ، وهَذا صوتٌ نحيلٌ يَسألُ عَن زوجٍ أو والدٍ أو شقيقٍ يَسعى، هُناكَ... في «بيروتَ».

وإذا ما صاحَ ديكُ أُمّ فرجٍ، وتَوجَّهْتَ إلى حقولِ القريةِ، فإنَّكَ تَقعُ على مَناظرَ مُمتعةٍ. فالطّريقُ تَلتوي بينَ الزّيتونِ والصّنوبرِ والبُطمِ والتّوتِ والكُرومِ، حاملةً إلَيْكَ في كلِّ مُنعطَفٍ سِحراً جديداً: هُنا عينٌ تُتمتِمُ، وهُنا بَيدرٌ تَتمرَّغُ أسرابُ الدّوريِّ فوقَ قشِّهِ، وهُناكَ بَقرةٌ تَقضِمُ، **تائهةَ اللُّبِّ**، نَديَّ الأعشابِ، وثَمّةَ حَجَلٌ عكّرَ صَفوَ أمنِهِ مِعولُ الفلّاحِ أو بَغلُ المُكاري.

لَسْتُ أدري أيَّ دفءٍ تَبعثُهُ في نَفسي طبيعةُ هَذه القَريةِ. إنَّني أَنظرُ الدّقائقَ الطِّوالَ إلى عُشبةٍ وكأنّي

البُطمُ: شجرٌ كالفُستُقِ له حَبٌّ عريضٌ بعناقيدَ كالعنقل.
تائهةُ اللُّبّ: شاردةُ العقلِ، غافلةٌ.



لَم أَرَ في حياتي عُشباً، وأغرِفُ مِنَ العَينِ الخَفنةَ تِلْوَ الخَفنةِ، وكأنَّ الماءَ لَم يَعرِفْ في حَياتي إلى فَمي سبيلاً. والحَصى، حَصاها، له في القلبِ مَنزلةٌ **هَيْهات** أنْ تَحتلَّ **نَزْراً** مِنْها حرارةُ الدُّنيا المَنحوتةُ.

ومَبْعَثُ قِسمٍ كبيرٍ مِن هَذا الدِّفءِ هو أنّي لا أَذكُرُ جَدَّتي إلّا ارتَسمَتْ في مُخيِّلتي صورةُ القَريةِ الّتي هي مِنْها، والّتي عادَتْ تُراباً في تُرابِها، ولا أُعاشِرُ القَريةَ إلّا اقترنَتْ **مَغانيها** بصورةٍ لجَدَّتي. كانَتْ تَعيشُ معَنا في «بيروتَ»، وتَنتقِلُ معَنا، صَيفاً، إلى القَريةِ. ولَكنَّ قِصَصَها وأخبارَها جَعَلَتْني أَنصهِرُ في جوِّ الجبلِ، وأَتنكَّرُ في كثيرٍ مِنَ الأَحيانِ لمَوطِنِ نَشْأتي، حتّى أَصبحَتْ أشهُرُ الصَّيفِ الثّلاثةُ مَهْبِطَ إلهامي ومَلعبَ آمالي. وفي آخِرِ صَيفٍ شهدَتْهُ جَدَّتي، كانَ عليَّ أنْ أَنزِلَ إلى «بيروتَ» يوميّاً في الخامسةِ صباحاً. كُنْتُ

هَيْهات: اسمُ فعلٍ بمعنى «بَعُدَ».
النَّزْرُ: القليلُ التّافِهُ.
المَغاني: المَنازِلُ.

أُسرِعُ إلى غُرفةِ جَدّتي، قبلَ الضَّوءِ، فأَلقاها نائمةً، أو أَلقاها غالباً جالسةً في فِراشِها، مِنديلُها المُزَركَشُ على رأسِها مُنكّسٌ كطَربوشِ القَبَضايِ، وهي غارقةٌ في حديثٍ لا اتِّصالَ فيهِ، ولا نهايةَ له، معَ إخوانِها وأَخَواتِها وزوجِها ووالدَيْها، وكلُّهُم أمواتٌ؛ فأَعلمُ أنّها ليسَتْ هُنا، ولا أَعجَبُ كثيراً، لأنَّ هَذه الرِّحلةَ في عالَمِ الأمواتِ واحدةٌ مِن سِلسلةٍ كانَتْ تَقومُ بها بَينَ الحينِ والحينِ خِلالَ أيّامِها الأخيرةِ. وأُحَيّيها تَحيّتي المعهودةَ بأنْ أُطوِّقَها بِذراعي، فتَقطَعُ حديثَها، وتَتأكّدُ لها هُويّتي بِلَمْسِ شَعري، وتَعودُ إلى نفسِها، وتَسألُني:

ـ رايِحْ عالشّغلْ يا تُقْبُرْني؟... المَرْحومْ بَيّكْ راحْ؟

ولَكنْ سُرعانَ ما تَتذكّرُ، لا أَعلمُ كَيفَ، أنّني لَسْتُ أبي، وأنَّ أبي ليسَ «مَرحوماً»، فتَضرِبُ رأسَها بكَفَّيْها، وتُعنِّفُ نفسَها قائلةً:

ـ يُقْصُفْ عُمْري شو أنا حْمارَة. رَيْتْني موتْ.

والواقعُ أنَّ الموتَ كانَ يُحوِّمُ حولَها مِن غَيرِ انتظارٍ

دَعوةٍ مِنْها. كانَ يُحوِّمُ مُنذُ أَمدٍ وهي تَركُه وتَطرُدُه، حتّى كانَ له يومٌ عليْها. نَزَلْتُ إلى «بيروتَ» مُزوَّداً ببَرَكاتِها، ومُزوَّداً بصورةٍ لوَجهِها الّذي نَحتَ الزّمانُ فيهِ أشكالاً هَندسيّةً مختلفةً. ولمّا عُدْتُ عِشاءً إلى القَريةِ، كانَتْ جَدَّتي تَلفِظُ أنفاسَها الأخيرةَ. إلّا أنَّها كانَتْ، وَسْطَ حَشْرَجَتِها، تَستجمِعُ حُشاشتَها لِتَسألَ عَنّي أُمّي، وتَدعو لنا جميعاً بالتَّوفيقِ. وانتحَيْتُ زاويةً في البَيتِ أَنتظِرُ... وإذا بأُمّي تَنعاها إليَّ وتُعزّيني.

راحَ جرسُ القَريةِ يَندُبُ نَدَباتِهِ المُتقطِّعَةَ، فتُردِّدُ نَدَباتِه الأوديةُ. ولمّا كانَ اليومُ التّالي، احتوَتْ جَدَّتي حُفرةٌ شَرقيَّ الكنيسةِ، بقِيَتْ فوقَها أَحشابُ الأكاليلِ والصُّلبانِ إلى عَهدٍ قريبٍ، وما يَزالُ بعضُها قائماً حتّى السّاعةِ. وحينَ أُفكِّرُ الآنَ في جَدَّتي لا أَبكي، ولا أَحزَنُ، إذْ إنَّ الحُفرةَ لَم تَضُمَّ مِن جَدَّتي إلّا التُّرابَ والعَظمَ،

الأمدُ: الأجلُ، المُدّةُ.
الحشرجةُ: تردُّدُ النّفس بتقطُّعٍ قُبَيْلَ الموتِ.
الحُشاشةُ: بقيّةُ الرّوحِ في المريضِ أو الجريحِ.



ولا أعلمُ: هَل تَبَعْثرَ التُّراثُ والعَظْمُ، أو مَتى يَتَبَعثَرانِ.

أَمّا حَدَّتي أبا، حَدَّتي القاصَّةُ، والمُربِّيَةُ، والقَبُ، فإنَّها إلى جانبي حَيْثُما حَلَلْتُ مِنَ القَريةِ، وكُنَّما قَعدْتُ إلى القرطاسِ أودِعُه حاطِرةً. وإنَّ السّرورَ لَيُفعِمُ قَلبي الآنَ، إذْ أَتصوَّرُ جَدَّتي مَعي، أُخبرُها بما أَكتُبُ، فتَرقُصُ طَرَباً حيناً، وتَضحَكُ ضِحكتَها المَكبوتةَ حيناً، وتَقولُ لي في حَنانٍ وفَخرٍ:

ـ يا شيطانْ. عَلَّمْناكْ عَشّحادِه سَبَقْتْنا عَبْوابْ!

قصة

مَعاوِلُ الأَرضِ

الجامعُ **يُؤَذِّنُ** الفَجرَ...

لَم يكُنِ الشَّيخُ زينُ العابِدينَ لِيَحْلُمَ بِأنْ **تُصيخَ** إلَيْه يوماً تِلكَ الآذانُ الهائمةُ كلُّها. لَطالَما أَذَّنَ في القَريةِ **وجَوَّدَ**، مُطبِقاً في الرِّحابِ الـ «حيَّ على **الفَلاحِ**»؛ حتّى لَتَبْلُغَ «الحاءُ»، في نهايةِ المَطافِ، **قُنَّةَ** السَّماءِ، فيَشعرُ الشَّيخُ بانْثِلاجةٍ تَنسابُ في صَدرِهِ وتَملأُ رِئتَيْهِ دَفقاً جديداً لِانطلاقٍ جديدٍ؛ هَذا والنّاسُ لاهونَ عَنْه

يؤَذِّنُ: يُعْلِمُ بِمَوعِدِ الصَّلاةِ ويَدعو إلَيْها.
تُصيخُ: تُصْغي.
جوَّد: أعطى كلَّ حرفٍ حقَّهُ في النُّطقِ وفقاً للأصولِ.
الفلاحُ: الفوزُ والنَّجاةُ.
القُنَّةُ: القِمَّةُ.

بغَطيطِهِم أو بمَشاغِلِهِم، مُكتَفونَ غالباً مِنَ التَّشحيعِ بِـ «اللهُ أَكبَرُ» يُدَمدِمونَها بهَمْهَمةٍ **بَحّاءَ**.

أمّا السّاعةَ، فإنَّ القَريةَ آذانٌ. إنَّ صَوتَ الشَّيخِ، على غَيرِ عادةٍ، يَنساقُ تارةً وكأنَّما المَلَلُ **أَعياهُ**، في لَحنٍ رَتيبٍ حزينٍ يَتحاوَبُ هو و**الدُّجْنَةُ** الّتي تُكفِّنُ القَريةَ، و**يُجفِلُ** أُخرى في نَبرةٍ قَويّةٍ كأنّها ذَلكَ الشُّعاعُ الّذي يُحاولُ أنْ يَستقرَّ في حَواشي السَّماءِ مُمَهِّداً لِحُلولِ **جَحافِلِ** الضَّوءِ. وإنَّهُ لَيُخَيَّلُ لِلشّيخِ أنَّ الدُّنيا تَسمعُه... يُخيَّلُ له أنَّ الأُفقَ لَيسَ أُفقاً، وأنَّ خطوطَهُ المُتحلِّقةَ حَولَ القَريةِ تَبتعِدُ وتَبتعِدُ في المَدى حتّى تَتَّصِلَ القَريةُ بالدُّنى المُحيطةِ، فيَسمعُ النّاسُ جميعاً... يُخيَّلُ له أنَّ الحِجارةَ الّتي كانَتْ بالأمْسِ بُيوتاً أو أَشباهَ بُيوتٍ تُصِمُّ آذانَها دونَ نِدائِهِ، راحَتِ السّاعةَ، وقدْ فارَقَتْها العافيةُ،

بحّاء: في صوته خشونة وغلظ.
أعياهُ: أتعبهُ.
الدُّجنةُ: الظُّلمةُ.
يُجفِلُ: يفرُّ ويشرُدُ.
الجحافِلُ: الجيوشُ الكبيرةُ

وبَعثَرَتْ كِبرياءَها مَعاولُ مِن قَبِ الأرضِ، تَلْتهِمُ كلامَ اللهِ التهاماً... يُخيَّلُ له أنَّ زَيتوناتِ السَّفحِ طَقَّقَها النُّعاسُ المُزمِنُ، فاطَّرَحَتْ تِلكَ الابتسامةَ الّتي كانَتْ بها تَفقَأُ الحِصرِمَ في عينِ الزَّمنِ، وهبَّتْ تَشُكُّ في بَطنِ الأَرضِ جُذورَها **المُتَعتِعَةَ** شَكّاً، وتُنصِتُ...

ولعلَّ الزَّيتوناتِ أَكثَرُ ما في القَريةِ إنصاتاً في هَذه اللَّحظةِ... بَل لعلَّها أَكثَرُ مَن في القَريةِ إِنصاتاً... فقَدِ استحالَتْ على يدِ الزِّلزالِ خَلايا حيَّةً **تُهيمِنُ**، بما عُرِفَ عَنْها مِن رِفقِ السَّلامِ، على **مُهَجٍ** و**أكبادٍ** قُدّوا مِن **شَمَمٍ** لبنانيٍّ، وحاوَلَتِ الأرضُ أنْ تُرغِمَ أُنوفَهُم لِفَرطِ ما أَرغَموا أُنوفَ صخورِها يُفتِّتونَها ذَرّاتٍ، ويَنتزعونَ مِنْها الخيرَ ما أَرادوها أنْ تَجودَ... مِن هَذه

المُتعتِعةُ المتحرّكةُ بقوّةٍ والضّاربةُ في الأرضِ.
تُهيمِنُ تُراقِبُ وتُحافِظُ
المُهجُ دمُ القلوبِ، الأرواحُ
الأكبادُ مفردُها الكبدُ وهو جوفُ الإنسانِ والمقصودُ هُنا القلوبُ.
الشَّمَمُ: الأَنفَةُ أي ارتفاعُ الأنفِ شموخاً واعتزازاً.

المُهَجِ والأكبادِ، تحتَ الزّيتوناتِ، أُلوفٌ... **تَئِدُهُمُ** الوُحولُ، ويَبعَثُ **القُرُّ** في أَوصالِهِم رعدةً هَيهاتَ أنْ تُخرِسَها عُصَيناتٌ تَشتعِلُ هُنا وهُناكَ، لِتُعيدَ إلى النّفوسِ، أوّاهْ! ذِكرى دِفْءِ المَوقِدةِ!...

تَمَلْمَلَ رؤوفٌ في **ضَجْعَتِهِ** غيرَ مرّةٍ... يَستلقي على ظَهرِهِ، ويَشبُكُ يدَيْهِ تحتَ رأسِهِ، ويَعقِدُ رِجلاً فوقَ رِجلٍ، وما تَلبثُ **النِّصالُ** الحادّةُ أنْ تَعبَثَ بجَسدِهِ، فيُكشِّرُ تَكشيرةً فيها شَتيمةٌ، ثُمّ يَنقلِبُ على جَنبِهِ... ثُمَّ يَضيقُ جَنبُه بالنِّصالِ الحادّةِ ذَرعاً، فيَجلِسُ، ثُمّ ينتصِبُ واقفاً، ثُمّ يَقعُدُ... وفي الوادي القريبِ صَرّارٌ ناسِكٌ يُطلِقُ بَينَ الفَينةِ والفَينةِ تَسبيحتَهُ، فتَختلِطُ بنَعيقِ بومةٍ مُجفِلةٍ أو نَهيقِ حمارٍ أَرْعَنَ... ظلَّ هَذا دأبَ رؤوفٍ طَوالَ اللّيلِ. وقدْ زادَ في تَململُبِهِ أنَّ المطرَ كانَ يَقرعُ الحصيرَ الّذي اتّخذَهُ وأهلَهُ سقفاً مَدّوهُ بَينَ زَيتونتَيْنِ

تَئِدُهُم: تدفِنُهم أحياءً.

القُرُّ: البَرْدُ.

الضَّجعةُ: الرَّقدةُ، النّومةُ.

النِّصالُ: مفردُها النَّصلُ وهو حديدةُ الرُّمحِ أو السّيفِ أو السّكّين

مُتقاربَتَيْنِ. ولَكنْ، أنّى لِلحصيرِ أنْ يَتحدّى المطرَ؟ فمِن شَيْطناتِ رؤوفٍ وإخوتِهِ السّابقةِ فيهِ نوافذُ ونوافذُ!...

ولمّا انطلقَتْ مِنَ الجامعِ دَعوةُ الشَّيخِ زَينِ العابدينَ، شعرَ رؤوفٌ بأنَّ **الكابوسَ الجاثمَ** فوقَ صدرِهِ قدْ تَزحزَحَ... ونظرَ حَوالَيْهِ، وكانَ أَقربَ النّاسِ إِلَيْهِ أخوهُ حُسينٌ، فقرّبَ وجهَهُ مِن وجهِ أخيهِ حتّى كادَ الأنفانِ يَصطَدِمانِ، وقالَ هَمْساً:

ـ حُسينُ، صاحٍ؟

فأجابَ حُسينٌ **مِن فَوْرِهِ**:

ـ صاحٍ، وأنتَ؟

ولَم يَتمالَكْ رؤوفٌ عَن أنْ يَبتسمَ لسؤالِ أَخيهِ الصّغيرِ.

وبالتِفاتةٍ سريعةٍ أَدركَ رؤوفٌ أنَّ أَهلَهُ مُستيقِظونَ.

الكابوسُ: الحُلمُ المُزعِجُ.
الجاثمُ: الرّابِضُ، الضّاغِطُ.
مِن فورِهِ: حالاً، مِن دونِ تأخيرٍ أو تباطؤٍ.

ثُمَّ نظرَ إلى أبعدَ، فشعَرَ بأنَّ الزَّيتوناتِ الأُخرى قدِ استيقظَتْ كذلكَ، وبأنَّ الشَّوادِرَ أيضاً كانَتْ تَعيشُ... ولمّا وَقعَتْ أَنظارُ رؤوفٍ على الشَّوادِرِ عادَ إلَيْهِ الكابوسُ. تُرى، هَل يَأتي اليومُ بما أَتى به الأمسُ؟ هَل يَعيشونَ ليلةً أُخرى تحتَ الحصيرِ، بَينَ زيتونتَيْنِ؟ الشَّوادِرُ!... الشَّوادِرُ! أينَ هي؟ مِن أيِّ سماءٍ نزَلَتْ على بعضِ النّاسِ، وأيُّ جَهنّمٍ ابتلعَتْ حِصَّتَهُ وحِصّةَ الكثيرينَ؟ أينَ شادِرُه؟ تُرى لو كانَ أبوهُ على قيدِ الحياةِ، لو لَم تَسحَقْ رأسَهُ تِلكَ العَتَبةُ **الجاحدةُ**، أفَكانوا يَنامونَ هَكذا في العَراءِ، حتّى ولا شادرَ!؟ وتحرَّكَتْ في عينَيْ رؤوفٍ دموعٌ سارَعَ إلى كَبْتِها قَبلَ أنْ تَنْفُرَ. إنَّهُ الآنَ ربٌّ لأمٍّ وشَقيقَيْنِ وأُختٍ، فلا يَليقُ به أنْ يَبكيَ. وهَل **يَضيرُه** أنَّهُ في الخامسةَ عَشْرةَ؟ صحيحٌ أنَّهُ كانَ، إلى أيّامٍ خلَتْ تلميذاً **يَختلِفُ** نهاراً إلى

الجاحدةُ: الكافرةُ، النّاكرةُ للجميلِ.

يَضيرُه: يُضِرُّ به.

يَختلِفُ: يتردّدُ.

المدرسةِ، ويَمضي عصراً إلى أبيهِ يُسْدي ما يَستطيعُ مِن مُساعَدةٍ؛ وصحيحٌ أنَّهُ كانَ محدوداً، قضى سنواتٍ يَتجوّلُ في صَفَحاتِ «المِرقاةِ الأولى»، ما إنْ يَحفظُ منْها فَصلاً حتّى تُزيلَ أعمالُ الحقلِ مِن ذِهنِهِ فُصولاً... إلّا أنَّهُ الآنَ ربُّ عائلةٍ. وهو إلى هَذا ذو **شَمَمٍ**: لَم يَتعلّمِ الشَّمَمَ في المدرسةِ، لأنَّ البرامجَ تَبيعُ أصنافاً أُخرى؛ ولَم يَتعلَّمْهُ في ما كانَ بيتَهُ، لأنَّ أَباهُ كانَ يَخرُجُ معَ أَذانِ الفجرِ ليَعودَ عَصراً، فيَغسِلُ رِجلَيْهِ على **المَصطبةِ**، ويَتَعشّى، ويَنامُ... هَذا في الصَّيفِ. أمّا في الشِّتاءِ، فقَدْ كانَ رؤوفٌ هوَ الّذي يَغيبُ عَنِ البيتِ، يَتأبَّطُ صباحاً قطعةً مِنَ الحَطبِ أو بِضْعَ «**كَنافِشَ**» تُفرَضُ على كلِّ تلميذٍ ضريبةً **لشِدقِ وُجاقِ** المدرسةِ، ولا يَعودُ إلّا في المساءِ. ولكنَّ هواءَ الصّخورِ كانَ يُعلِّمُه ذَلكَ الشَّمَمَ،

الشَّمَمُ: الأَنَفةُ والشَّهامةُ والعِزّةُ.
المصطبةُ: سُطَيحةٌ أمام البيت.
الكَنافِشُ: أكوازُ الصّنوبر.
الشِّدقُ: باطِنُ الفم لجِهةِ الخدّ.
الوُجاقُ: مَوضِعُ النّار.

وهواءَ الصَّنوبراتِ العَماليقِ؛ ونَفحةٌ مِن ترابِ القريةِ ليسَ يُدرى ما هي...

وأحسَّ رؤوفٌ نَقرةً حادّةً في أسفلِ قَدمِهِ، فهبَّ مدعوراً، وأطلقَتِ الدّجاجةُ وَلْولةً خبيثةً، وولَّتْ... مسكينةٌ! كَم وَلْولَتْ قبيلَ الزّلزالِ! لَيْتَهُم صَدّقوا حَدْسَها وخَرجوا توّاً مِن الدّارِ، إذَنْ لكانَ أبو رؤوفٍ إلى جانبِهِم الآنَ.

وخَرجَ رؤوفٌ مِن تحتِ الحصيرِ ويَداهُ في جَيبَيْ سُترةٍ كثيفةٍ كانَتْ نَصيبَهُ مُنذُ أيّامٍ مِن تَوزيعةِ الصّليبِ الأحمرِ... ومَشى. مَشى، وكانَ الصِّبيانُ والرّجالُ يَخرجونَ تِباعاً مِن تحتِ الزّيتوناتِ أو مِنَ الشّوادرِ، فيَتبادلونَ «صَباحُ الخَيرِ»، ويَجتمعونَ على غَيرِ مَوعِدٍ أو هدفٍ، ويَحتمونَ. وكانَ رؤوفٌ يُفكّرُ في ما جَرى أمسِ وفي قلبِهِ غُصّةٌ. أمسِ لَمحَ بعضُ الفِتيانِ سَيّارةَ شحنٍ قادمةً مِن بعيدٍ، عَرَفوا فيها السّيّارةَ الّتي حَملَتِ الشّوادرَ إلى بعضِ النّاسِ مُنذُ يومينِ. وقرّرَ

الحَدسُ: الإحساسُ المُسْبَقُ بحصولِ أمرٍ.

الفِتيانُ المحرومونَ مِنَ الشَّوادرِ أنْ يَعترضوا السَّيّارةَ حالَ وُصولِها، وأنْ يَحصُلوا على الشَّوادرِ بالقوّةِ إذا اقتضَتِ الحالُ. فسَدَّ عشَرةٌ منهُمُ الطّريقَ بقاماتِهِم، حتّى إذا ما أَطلَّتِ السّيّارةُ بعدَ المُنعطَفِ، ولمحَ الفِتيانُ رجالَ الدَّرَكِ فيها، تَقلّصوا إلى جانبَيِ الطّريقِ. ولمّا تَجاوزَتْهُمُ السّيّارةُ ولَمَحوا الشَّوادرَ في صُدوقِها، رَكضوا وراءَها كالمَجانينِ، وأمسكوا بالبابِ مُحاولينَ القفزَ فَوقَهُ إلى الدّاخلِ. إلّا أنَّ الدَّرَكيَّ الحارسَ مَنَعَهُم مِن ذَلكَ، فتَوقّفوا، وأَنظارُهُم تَغورُ في الشّوادرِ الهاربةِ إلى حَيثُ لا يَعلمونَ.

ولكنَّ الفِتيانَ لَم يَيأَسوا. اقترحَ عنَيْهِم رؤوفٌ أنْ يَترقّبوا السّيّارةَ، حتّى إذا ما عادَتِ انتقَموا مِنْها بما تَستحِقُّ. وتَوجّهَ بعضُهُم إلى خَراجِ القَريةِ يَتجسّسونَ. وبَعدَ مضيِّ بضعِ ساعاتٍ أعلنوا أنَّ السيّارةَ نفسَها قادمةٌ، فعَمدَ رؤوفٌ ومَن معَهُ إلى المساميرِ يَنثرونَها في الطّريقِ، وتَفرّقوا على الجانبَيْنِ يَنتظرونَ ما سيَكونُ

من أمرِ السّيّارةِ. وفجأةً انطلقَتْ مِن إحدى العَجَلاتِ زَعْقةٌ قويّةٌ توقّفَتْ على أَثَرِها السّيّارةُ، وتَرجّلَ السّائقُ الدَّرَكيُّ. وما إنْ أدركَ الفِتيانُ أنَّهُ اكتَشفَ المساميرَ حتّى انسحَبوا على مَهلٍ، وما لَبِثوا أنْ راحوا يَركُضونَ. إلّا أنَّ رجالَ الدَّرَكِ لَحِقوا بِهِمْ وأَلقَوا القبضَ عليْهِم. وكانَ شافعَ رؤوفٍ أنَّهُ يَتيمٌ، قُتلَ أَبوهُ في الزّلزالِ، فتَركوهُ وشَأنَهُ، **يَمُجُّ** دمَ قَلبِهِ وتَتَأكَّلُه الحَسرةُ.

وبَيْنا رؤوفٌ وبَعضُ الفِتيانِ والشُّبّانِ مُجتمِعونَ، قَطعَ الصَّمتَ أَحدُهُم بقَولِهِ:

ـ سَمعْتُ أنَّ بَعضَهُم قادمونَ اليومَ لتَوزيعِ المأكولاتِ...

ـ دَعهُمْ يَذهبونَ إلى الجحيمِ معَ مأكولاتِهِمْ! نُريدُ شَوادرَ!

قالَها رؤوفٌ كمَنْ تَهيّأَ **للنِّزالِ**.

ـ والأكلُ؟ أَلَسْنا بحاجةٍ إلى أَكلٍ؟ أنا لَم أَستطِعْ أنْ

يَمُجُّ: يرمي مِن فمِهِ.
النِّزالُ: القِتالُ.

أُخصِّصَ مِنَ البيتِ شيئاً. **مَسمَنَةُ** الدُّهنِ راحَتْ. جَرّةُ الزَّبيبِ اختفَتْ. القَمْحاتُ، السَّمْناتُ، كلُّها طارَتْ... نحنُ بحاجةٍ إلى أكلٍ أيضاً...

- وأنا أيضاً جَوعانُ. إخوَتي وأُمّي جائعونَ. ولَكنّني **أَرْبأُ بنَفْسي** أنْ آكُلَ ما يَجمعُه ليَ النّاسُ. **الكُوارةُ** في بَيتِنا لَم تَخلُ يوماً مِنَ القمحِ الحَوْرانيِّ، والمَسامِنُ لَم تَشتَقْ يوماً إلى الدُّهنِ، وبَيضاتُ **الخُمِّ** كانَتْ دائماً تَكفي وتَفيضُ... لَدَينا بعدُ دجاجةٌ. أذبحُها ونأكُلُها.

- والخُبزُ؟ والباقي؟... والدَّجاجةُ هَذه كَم تَكفيكُم يا رؤوفُ؟ وسَكتَ الجميعُ. ثُمّ قالَ أحدُهُم:

- أَرأَيْتُم إلى تِلكَ السَّيّدةِ الّتي أَتَتْ إلَيْنا وقالَتْ إنّها امرأةُ - لَسْتُ أَدري - مَن؟ أَرأَيْتُم إلى هيئتِها حينَ راحَتْ تُوزِّعُ عَلَيْنا الأكلَ؟ كانَتْ تَتوقَّفُ بَينَ اللّحظةِ

المسمنةُ: إناءٌ من فخّارٍ يوضَعُ فيه السّمنُ.
أربأُ بنفسي: أُنزِّهُها وأُجلُّها عن.
الكُوارةُ: وعاءٌ من طينٍ أو خزانةٌ في الحائطِ تُخزَّنُ فيها الحبوبُ والطّحينُ.
الخُمُّ: بيتُ الدّجاجِ.



واللّحظةِ، وتلتفتُ إلى ذلكَ القردِ الّذي كانَ بصُحبتِها وتَقولُ له:

- سميرُ، يَلّا...

فيَضعُ هَذا الآلةَ على عَينِهِ، ويُطبِقُ الأُخرى، ويَفقِسُ الزِّرَّ، وتَطلُعُ الصّورةُ... كانَتْ تَتصوّرُ معَنا وكأنَّنا «فُرجةٌ»...

- واللهِ لَولا الحياءُ لَفَرَزْتُها...

- اللهُ لا يُخْلينا مِنَ الصُّلّاحِ...

- إي واللهِ، اللهُ لا يُخْلينا مِنَ الصُّلّاحِ...

ابلجَ الصُّبحُ، وما لَبِثَتِ الشّمسُ أنِ ابتسمَتْ بَعدَ ليلٍ عابسٍ مُمطِرٍ... إلّا أنَّ البَرْدَ كانَ شديداً. وكانَ الأولادُ يَسرحونَ أنصافَ عُراةٍ، بخُدودِهِم المُحْمرَّةِ بالعافيةِ، لا يُبالونَ. وكانَتِ الدّجاجاتُ تَحومُ حَولَ الشَّوادرِ والزَّيتوناتِ، بَينَما رَقدَ بعضُ الخِرافِ في مَرابضَ مُرتجَلةٍ.

وحَوالى السّاعةِ الثّامنةِ رأى سكّانُ القَريةِ سيّارتَيْنِ صغيرتَيْنِ وسيّارةَ شحنٍ قادمةً. فأدركوا أنّهُ الأكلُ. ولمّا

وَصلَتِ القافلةُ الصّغيرةُ كانَ المُختارُ قدْ جَمعَ سُكّانَ القَريةِ في السّاحةِ، ووقفَ الجميعُ يَنتظرونَ التّوزيعَ بلا **نَهَمٍ**. وتَرجَّلَ مِنَ السّيّاراتِ شُبّانٌ وشابّاتٌ رَتّبوا المأكولاتِ كُوَماً كُوَماً، وراحَ المُختارُ يُنادي وفي يَدِهِ لائحةٌ، فيَتقدَّمُ أربابُ العائلاتِ واحداً إثْرَ واحدٍ، بجِباهٍ عابسةٍ، وعيونٍ **مُطرِقةٍ**، ويَتناولونَ نَصيبَهُم. ولمّا نودِيَ على رؤوفٍ أجابَ:

ـ أنا لا أُريدُ. أَعطوا المُحتاجينَ.

وذُهلَ المُختارُ، وذُهلَ سُكّانُ القَريةِ. إنّهُم يَعرفونَ أنَّ رؤوفاً مُحتاجٌ، يَعرفونَ أنَّ وراءَ رؤوفٍ أَفواهاً لَم تُطبَقْ على الدَّسَمِ مُنذُ يومَيْنِ. وراحَ الكُهولُ والشّيوخُ يهوِّنونَ على رؤوفٍ **ويَحُثّونَهُ** على أنْ يَأخذَ نَصيبَهُ، وهو يُجيبُ:

ـ أنا لا أُريدُ. أَعطوا غَيري.

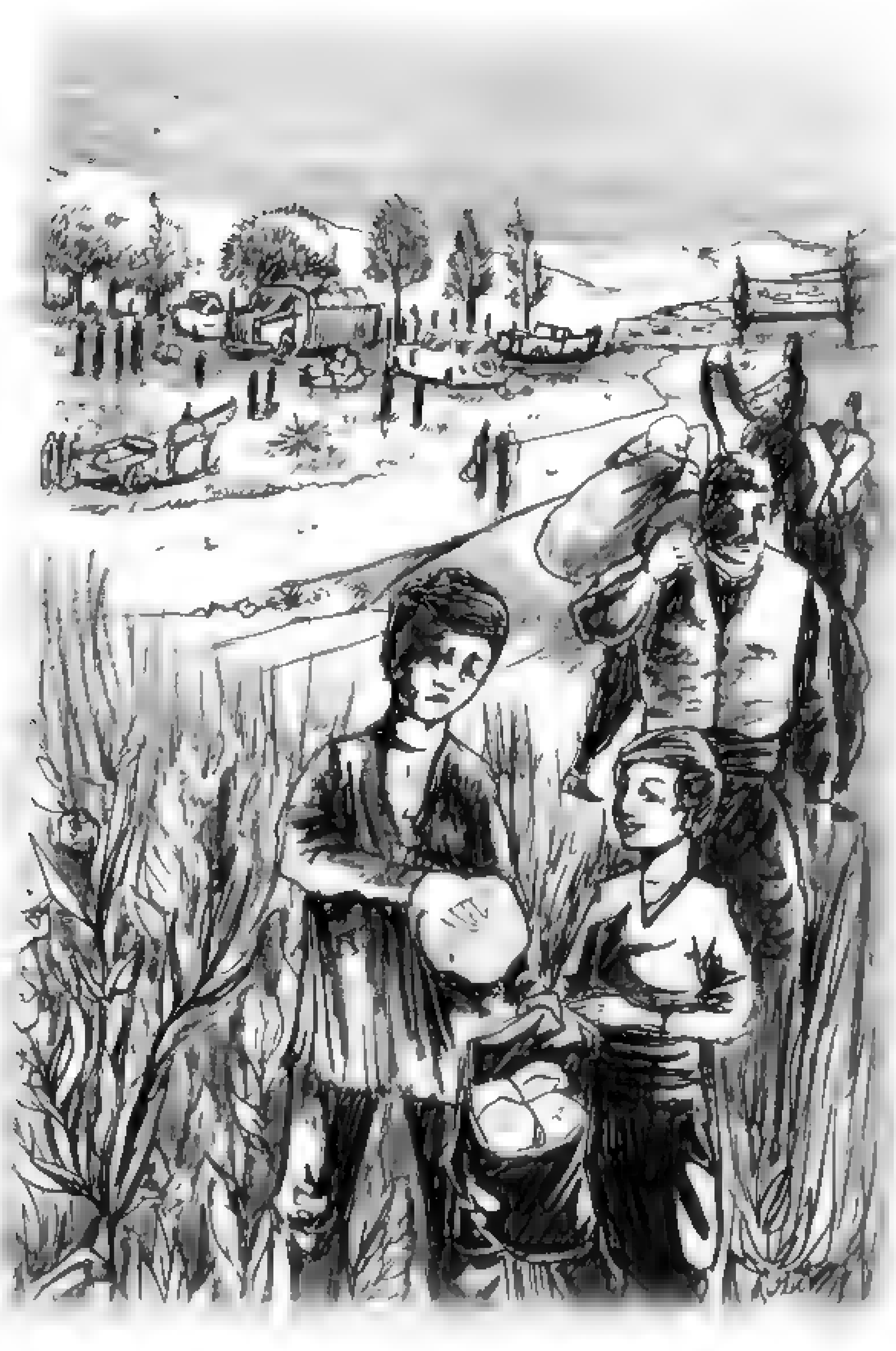
النّهَمُ الشَّرَهُ والإفراطُ في الشّهوة.
مُطرِقةٍ ناظرةٍ إلى الأرض.
يحثّونه يَحُضّونهُ ويُشجّعونَهُ.

وأخيراً تقدَّمَ مِنْه شابٌّ مِنَ المُوزِّعينَ، وأَقنعَهُ بأنَّ ما يُوزِّعونَهُ ليسَ حَسَنَةً ولا يَحمِلُ مِنّةً، وبأنَّ المُصابَ ليسَ مُصابَ قريةٍ بعَيْنِها، ولا مُصابَ رؤوفٍ بعَينِهِ، بَل هو مُصابُ كلِّ رؤوفٍ في البلدِ، وبأنَّ الواجبَ يَقضي بالتّالي أنْ لا يَنظُرَ إلى الأمورِ مِن خلالِ الفرديّةِ المُتمرِّدَةِ.

ولقَدْ شامَ رؤوفٌ في مُحدِّثِهِ الطّالبِ صِدقاً ومحبّةً، فسارَ معَهُ نحوَ المُوزِّعينَ. ثُمَّ توقّفَ قليلاً، وأطرقَ، وهزَّ رأسَهُ يميناً وشِمالاً، وابتسمَ ابتسامةً كالحةً... ثُمَّ تابعَ سَيرَهُ وتَناولَ نَصيبَ أهلِهِ، ومضى.

وما إنْ خطا خُطُواتٍ حتّى انقضَّ على رغيفٍ يَلتَهِمُه. وكأنَّهُ تذكَّرَ فجأةً أنَّ الرّغيفَ ليسَ مِن عَرقِ جبينِ أبي رؤوفٍ، وأنَّ المُوزِّعينَ قدْ يَكونونَ كتِلكَ السّيّدةِ البَدينةِ صاحبةِ الصُّوَرِ، فبَصقَ ما كانَ قدْ حَشا

المِنَّةُ: التّعييرُ بالجميلِ أو المعروفِ.
المُصابُ: المُصيبةُ.
شامَ: أحسَّ وقدَّرَ.



به فمَهُ، وهَمَّ بأنْ يَطرحَ ما في يَدِهِ أرضاً... ولمّا رفعَ يَدَيهِ شَعرَ بشيءٍ يَحذُبُه مِن سُترتِهِ. فالتفَتَ إلى الوراءِ، فوَجدَ أَخاهُ حُسَيناً واقفاً بقُربِهِ يَبتسِمُ ابتسامةَ الرّجاءِ.

قالَ حُسَينٌ:

ـ رؤوفُ، أخي، أَعطِني لُقمةً.

وهبطَتْ يَدا رؤوفٍ برِفْقٍ، وتَرقرقَتِ الدّموعُ في عَينَيْهِ؛ ثُمَّ تَناولَ رغيفاً أَعطاهُ أَخاهُ، وحَثَّ الخُطى نحوَ زَيتونتِهِ...

قصة

بو مرْعي

-1-

بو مِرْعي رَجلٌ شريفٌ، رَضيتَ أَمْ أَبَيْتَ؛ وهو، على الرَّغمِ مِن هَذه الأغوارِ السّحيقةِ الّتي تَفصِلُ حاضِرَهُ عَن ماضيهِ، وهَذه الأيّامِ الحافلةِ بحياةٍ صاخبةٍ لا هَوادةَ فيها، قدْ حافظَ على سُمْعتِهِ النّبيلةِ، واستطاعَ أنْ يَتمتّعَ بعفّةٍ جعبتُهُ يَحمِلُ شَعرَ المَشيبِ أبيضَ طاهراً لا تُلطّخُه ذِكرى فسادٍ أو تَنتهِمُه نارُ دَنَسٍ. وبو مِرْعي ليسَ مِن هَؤلاءِ الكثيرينَ الّذينَ يَتظاهرونَ بالتَّواضعِ الخبيثِ الكاذبِ، فيَرُدّونَ عى المادحينَ بجُمَلٍ رنّانةٍ كالطَّبلِ، مثْلِ «مَعاذَ اللهِ»، و«العفوَ يا سيّدي»، و«هَذا مِن كرَمِ أخلاقِكُم»، و«أَخجلتُمونا»، إلى ما هُنالكَ مِن فرقعاتٍ

نَتسلّى بها كما يَتسلّى الأولادُ الصّغارُ بلُعَبِهِم، وكما يَتسلّى الأولادُ الكِبارُ ـ مِن سياسِيّينَ وغَيرِ سياسِيّينَ ـ بكَلِمةِ «ديموقْراطيّةٍ»!

لِذا تَرى بو مِرْعي يُمِرُّ أَصابعَهُ على شاربَيْهِ تيهاً، ويُنكِّسُ **لُبّادَتَهُ** إلى الأَمامِ، كُلَّما ذَكرَ أَحدٌ **مَأْثَرَةً** مِن مآثرِهِ في عَهدِ الشّبابِ، مِن رَفعِ الأثقالِ، إلى صَلبِ جُرنِ الكُبّةِ، إلى دقِّ الجرسِ، إلى الإسهامِ في الأفراحِ والأحزانِ بكُلِّ ما يَحتِمُه عَلَيْهِ واجبُه شابّاً. ولا يَكتفي بو مِرْعي بما يَقولُه النّاسُ عَنْه، بَل يُريدُ أنْ يَتكلَّمَ هو أيضاً على نفسِهِ، كأنَّما يَقصِدُ أنْ يُنبِّهَ على صِفاتٍ فاتَ المادحينَ ذكرُها. فقَلَّما لا يُحدِّثُكَ ـ عندَما تَجلِسُ إلَيْهِ في العِرزالِ، أو على **رِواقِ** الطِّينِ، وتَسألُه عَن «تِلكَ الأيّامِ» الغابرةِ ـ قَلَّما لا يُحدِّثُكَ عَن مُغازَلةِ الحِسانِ له وعَن تَهرُّبِهِ مِنْهُنَّ، وعَن مُلاحَقَتِهِنَّ له على دربِ العَينِ

اللُّبّادةُ قَلَنْسُوَةٌ من صوفٍ تُلبَسُ تحتَ الطُّربوشِ أو بدونِه.
المأْثرةُ المكرُمةُ، العملُ الّذي يؤثَرُ ويُذكرُ عن صاحبِه ويفتخرُ هو به
الرِّواقُ: مقدَّمُ البيتِ.

في الصّيفِ، أو في الحقولِ أيّامَ الفِلاحةِ. وهو دائماً يُنهي كَلامَهُ بهَذا المثَلِ، رافعاً عَنْه في النُّطقِ مِن غَيرِ وَجَلٍ صَبْغتَهُ النَّحْويّةَ:

ـ إذا أَردْتَ أنْ تَكونَ شابّاً في شَيخوختِكَ فكُنْ شَيخاً في شبابِكَ.

ولا يَنسى بو مِرْعي أنْ يُحدِّثَكَ عَنِ الانتخاباتِ، وعَن زَعامتِهِ الّتي يَخِرُّ أمامَها كِبرياءُ المرشَّحينَ، وعَنِ الخِدْماتِ الّتي أدّاها لهَذا وذاكَ مِنَ الّذينَ ـ لَوْلاهُ ـ لما كانوا تَربَّعوا على كَراسي النِّيابةِ، وتَمتَّعوا بخَيراتِ الحَصانةِ النِّيابيّةِ. والأَغربُ مِن ذَلكَ أنَّ بو مِرْعي لا يَتقاضى مُكافأةً مُباشِرةً على أعمالِهِ، لَكنَّهُ يَقبلُ بالوعودِ الطَّنّانةِ والألقابِ الفَضفاضةِ الّتي يَخلَعُها علَيْهِ المُرشَّحونَ، فإذا هو، بَينَ ساعةٍ وساعةٍ، «أَفَندي»، و«بَيْك»، و«باشا». حتّى إذا قَرُبَتْ ساعةُ الانتخاباتِ

الوجلُ: الخوفُ
يَخِرُّ: يسقطُ ساجداً.
الفضفاضةُ: الواسعةُ

أصبحَ «شَيخَ شَبابٍ» وقائدَ جماعةٍ!...

ولَكنْ لِبو مِرْعي ـ سامَحَهُ اللهُ ـ فلسفةً اجتماعيّةً وطنيّةً خاصّةً به، أو قُلْ إنَّهُ يَترأَّسُ مدرسةً تَتَبنّى هَذه الفلسفةَ، وتَضُمُّ بَينَ جُدرانِها «طابورَ» المُسنّينَ السّائرينَ نحوَ الموتِ باتّزانٍ وصبرٍ ونِظاميّةٍ. فبو مِرْعي مَثلاً، لا يُؤمِنُ كَثيراً بهَذه «الخُرافةِ» ـ على حَدِّ تَعبيرِهِ ـ الّتي نُسَمّيها الِاستقلالَ، ولا يَتغنّى ـ كما يَتغنّى بعضُ النّاسِ ـ بالمبادئِ الوطنيّةِ العُليا، لسببٍ بسيطٍ، هو أنَّ بو مِرْعي يَعتقدُ أنَّ الحقَّ للقُوّةِ، وأنَّ القَويَّ يأكلُ الضّعيفَ، وأنَّ «لُبنانَ» ـ شأنُه شأنُ كلِّ ضعيفٍ ـ لا بدَّ له مِن بلدٍ حاكمٍ أَقوى مِنْه يَفرِضُ سُلطانَهُ علَيْهِ، ويَغرِسُ رايتَهُ على قِممِ جبالِهِ، ويَنشُرُ مَبادِئَهُ وإرادتَهُ فوقَ **ذُرى** أَرزِهِ الّذي ما فَتِئَ، مُنذُ أجيالٍ وأجيالٍ، يَتنقَّلُ مِن ذُلٍّ إلى ذُلٍّ، مِن سَيطرةٍ إلى سَيطرةٍ، حتّى استقرَّ على حرّيّةٍ واستقلالٍ، ناعمَ البالِ، مُرتاحَ الضّميرِ. وإيمانُ بو

الذُّرى: القِممُ، مفردُها الذُّروَةُ.

مِرْعي هَذا ليسَ عائداً إلى طبيعةٍ رَثَّةٍ في نفسِهِ، ولا إلى أخلاقٍ رَجعيَّةٍ تجعلُه يَدوسُ القِيَمَ الاجتماعيَّةَ الوطنيَّةَ، بَل إلى تربيةٍ ونشأةٍ وصِباً وكهولةٍ، وحَتّى شيخوخةٍ، قَضاها يَتنقَّلُ مِن يدِ أجنبيٍّ إلى يدِ أجنبيٍّ آخَرَ، وهو يُنادي الكُلَّ على السَّواءِ: «يا أَبي»، فلا يُميِّزُ والدَهُ الحقيقيَّ مِن والدِهِ الزّائفِ، فيَخلِطُ مثَلاً بينَ «تُركيّا» و«لُبنانَ»، وبَينَ «لُبنانَ» و«فَرَنْسا»، وبَينَ «فَرَنْسا» و«تُركيّا»! فكانَ في شبابِهِ يُعيِّشُ السُّلطانَ في عهدِ سيطرةِ أسيادِ «السَّفَرْ بَرْلِكْ»، ويُردِّدُ مع المُردِّدينَ «بادي هاشِمْ شاقْ يا شاقْ»؛ وهَتفَ مع الهاتفينَ للأُمِّ الحنونِ، فكانَتْ «فيفْ لافرانْس» تَخرُجُ بلَهجتِهِ القَرويَّةِ وفيها مِنَ الخُضوعِ والسّرورِ ما لا تَنتظِرُه أُمٌّ مِن بَنيها؛ ولَم يَتأخَّرْ، أَثناءَ وجودِ القُوّاتِ الإنكليزيَّةِ أيّامَ الحربِ في «لُبنانَ»، عَن أنْ يَرفعَ إِصبعَهُ مُشيراً إلى علامةِ النَّصرِ «V»، وعَنِ الهُتافِ بلُغَتِهِ المُضحِكةِ: «هالو جورج!». فإذا أَحَطْنا بهَذه الظُّروفِ الّتي مرَّ بها

أحاطَ بالأمرِ: عَرَفَهُ مِن كلِّ جوانبِه.

عمُّنا بو مِرْعي مُنذُ ولادتِهِ السّعيدةِ حتّى يومِهِ هَذا، استطَعْنا، ولا شكَّ، أنْ نَجِدَ تأويلاً لفَسفتِهِ **النّابيةِ**. ولا يَذهبُ الظَّنُّ بكَ إلى الاعتقادِ أنَّ بو مِرْعي ثَوْرِيٌّ يُحاولُ قَلبَ الوَضعِ الاستقلاليّ والاستنجادَ بالأجانبِ، بَلْ هو، على خلافِ ما قدْ يَبدُرُ إلى الأذهانِ، «ماشي حالو» معَ الاستقلالِ وحُكّامِهِ، فيَقولُ لأكبرِ المسؤولينَ، والكلامُ هُنا على ذِمّةِ بو مِرْعي: «مَرحباً يا خالْ»! فهو مَثلاً لا يَتأخّرُ عَن مُوافَقةِ الحكومةِ على أعمالِها إذا كانَ يَقرأُ الجريدةَ في سهرةٍ، ولا يُظهِرُ أيَّ **تَقاعُسٍ** عندَ زيارةِ أحدِ النّوّابِ النّيْكواتِ لقَريتِهِ! أمّا إذا كُنتَ مِن أصدقائِهِ الّذينَ يَثِقُ بِهِم، وسألْتَهُ عَن سببِ سياستِهِ هَذه، فهو يُجيبُكَ، ناظراً حولَهُ خشيةَ الآذانِ اللّاقطةِ:

ـ الكلامْ بِسِرَّكْ، عاوْزينْهُم!

و«عاوْزينْهُم» هَذه تَعني عندَ بو مِرْعي كَثيراً مِنَ

النّابية: المستقبحة، غير المقبولة.

التّقاعسُ: التأخّرُ.

الأشياءِ: تعني أنَّ بو مِرْعي وجارَه شِبلي الدّاروني قدْ تَشاجرا على شِبرِ أرضٍ في جَلِّ التّوتِ أمامَ المَعصرةِ! وتَعني أيضاً أنَّ بو مِرْعي يُريدُ أنْ يُدخِلَ أَحدَ أبنائِهِ في الدَّرَكِ، حتّى ولو لَم تَتحقَّقْ فيه الشّروطُ لقُبولِهِ: فطولُه مَثلاً لا يُجاوِزُ الـ 150 سَنْتيمتراً! ثُمَّ إنَّ هَذه الكَلمةَ تَعني أنَّ بو مِرْعي لا يُريدُ أنْ تَمُرَّ الطَّريقُ الجديدةُ في أملاكِهِ، وإنْ كانَ ازدهارُ القريةِ وحياتُها يَتوقّفانِ عليْها، فالاستقلالُ، كما يَقولُ، على رأسِهِ، ولَكنَّ الأرضَ قبلَ الاستقلالِ، لا إلاهةَ إلّا هي!

لهَذهِ الأسبابِ كُلِّها يَحتاجُ بو مِرْعي إلى «أصدقائِهِ» مِن نوّابٍ وقبضاياتٍ ومُعاوِني قبضاياتٍ وسِكْرِتيري مُعاوِنينَ، ليَضغَطوا على ضمائرِ القُضاةِ، ويَتحدَّوْا قوانينَ قِوى الأمنِ، ويَقطعوا مَجاريَ رزقِ أهلِ القريةِ إكراماً لسوادِ عَينَيْ بو مِرْعي... وأرضِ بو مِرْعي!

-2-

بدأَتْ حَملةُ الانتخاباتِ في ربيعِ 1947، فأَخذَ كلٌّ مِنَ المُرشَّحينَ يَجولُ في مَنطِقَتِهِ، عارضاً صِفاتِهِ

الحميدةَ وأخلاقَهُ العاليةَ ومبادِئَهُ السّاميةَ وأهدافَهُ القَوميّةَ، فأصبحَ الأبكَمُ خطيباً، و**المُخَضْرَمُ** شابّاً، والمُتَعجرِفُ مُتواضِعاً، والسِّكّيرُ واعظاً، والرَّجْعيُّ تَقَدُّميّاً، والإقطاعيُّ ديموقراطيّاً، والرَّأسُماليُّ المُحتكِرُ شُيوعيّاً تَعاوُنيّاً! والّذينَ كانوا دائماً يَتعلّقونَ بأذيالِ الأجانبِ أيّامَ عَهدِ الانتدابِ، والّذينَ ما فاهوا قطُّ بكَلمةٍ عربيّةٍ، أصبحوا الآنَ دعامةَ الاستقلالِ، والدّاعينَ إلى التّوحُّدِ العربيِّ والتّكتُّلِ اللّبنانيِّ ضدَّ المُستعمِرينَ! وهَكذا **اختَلطَ الحابلُ بالنّابلِ**، فكانَ مِنَ العسيرِ التّفريقُ بَينَ المُخْلِصِ الحقيقيِّ والمُخْلِصِ الشَّفهيِّ. وهَذا لَم يَمنعِ النّاخبينَ مِنَ الانحيازِ إلى هَذا دونَ ذاكَ، لأنَّ الأصفرَ الرّنّانَ قدْ **شَنَّفَ آذانَهُم** بتَغريدِهِ، ولأنَّ سُلطةَ بعضِ الزُّعماءِ قدْ أجهزَتْ على إرادتِهِم

المُخضرَمُ: مَن كانَ بينَ مرحلتيْنِ منَ العُمرِ، وهُنا بينَ الكُهولةِ والشَّيخوخةِ.

اختلطَ الحابلُ بالنّابلِ: مثلٌ يُضربُ في اضطرابِ الأمرِ. والحابلُ: الصّائدُ بنَصْبِ الحِبالَةِ أيِ المِصيَدةِ؛ والنّابلُ: الرّامي بالنِّبالِ.

شَنَّفَ الآذانَ: زيّنَها وأطربَها.

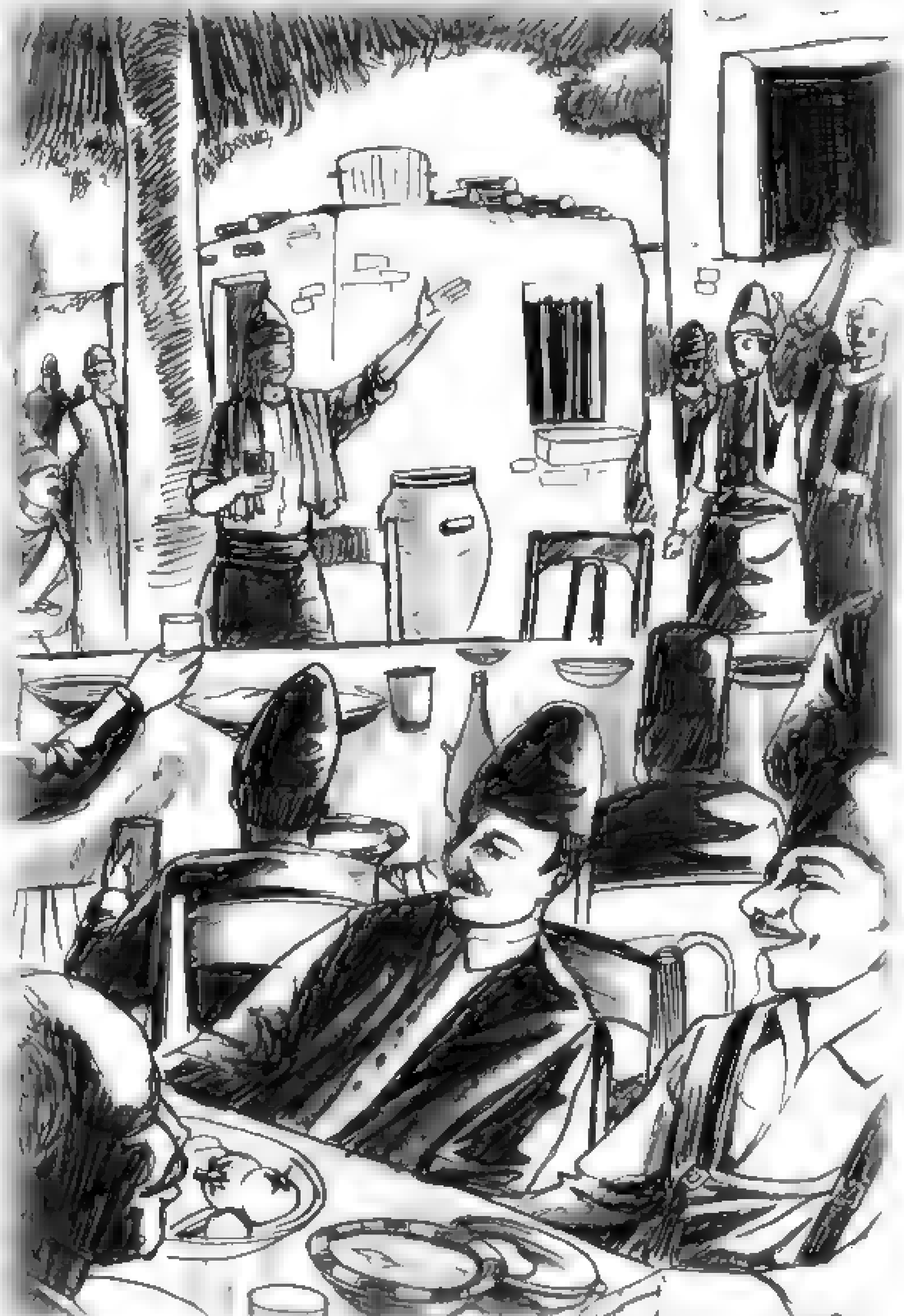
وعزَّتِهِم الشَّخصيَّةِ، ولأنَّ المَصالحَ والمَآربَ جعلَتْهُم يَرَوْنَ الذِّئبَ حَمَلاً والعَندليبَ غُراباً!

ولَم تَكُنْ قَريةُ بو مِرْعي ـ على صِغَرِها وضَآلةِ أَهمِّيَّتِها الانتخابيَّةِ ـ لِتَخلُوَ مِنَ العِراكِ الانتخابيِّ! فقَدْ لاقَتْ نَصيبَها مِنَ الانشقاقِ والاختلافاتِ: المُختارُ وحِزبُه فئةٌ، والشَّيخُ وجماعتُه يُصوِّتونَ لمرشَّحينَ «مُشَكَّلينَ»، وبو مِرْعي وأَتباعُه فئةٌ ثالثةٌ.

وذاتَ ليلةٍ دعا بو مِرْعي النّاخبينَ إلى «كأسِ عَرقٍ»، فلَبّى فريقٌ مِنْهُمُ الدَّعوةَ، وهُم على يَقينٍ أنَّ كأسَ العَرقِ لَن تَكونَ كأسَ عَرقٍ فحَسْبُ، بَلْ سَتَكونُ كأسَ عَرقٍ مَعَ «مازةٍ» مُحتَرَمةٍ مِن خُطَبِ بو مِرْعي يَحثُّهُم فيها على انتخابِ مَن يَراهُ هو صالحاً للنِّيابةِ.

ودارَتِ الحمرةُ باديَ بَدْءٍ، وانبَرى «القَوّالونَ» يَجولونَ في سماءِ الميجانا والعَتابا وبو الزُّلُفِ. ولَمّا «حَميَتِ» الجسةُ، وقفَ بو مِرْعي خطيباً وفي يَدِهِ

المَآربُ: الغاياتُ والأهدافُ.
يَحُثُّهُم: يُشجِّعُهُم ويَحُضُّهُم.



كأسٌ، وقالَ لِلمدعوّينَ:

ـ يا شبابُ، أَنتُمْ تَعلمونَ أنَّ الِانتخاباتِ قدْ قَرُبَ مَوعِدُها، وأنَّ قريَتنا يَنقُصُها الكثيرُ مِنَ الإصلاحاتِ، لِذا وَجبَ علَيْنا أنْ نُفرِّقَ بينَ الزّؤانِ والقمحِ، ونَنتخِبَ الّذي نَراه أهلاً ليُمثِّلَنا، ومُخلِصاً في المُطالَبةِ بحُقوقِنا المَهضومةِ. وقدْ زارَني اليومَ المرشَّحُ فاضلْ بَيكْ شحرورْ ـ تَعرفونَهُ ـ ووَعدَني بأنْ يَجُرَّ الماءَ مِن نبعِ الحَرفِ إلى البيوتِ، وأنْ يُضيءَ قَريتَنا بالكهرَباءِ، وقالَ لي إنَّهُ مِنَ المُمكِنِ أنْ يَبنيَ يوماً ما «هوتيلاً» في قَريتِنا لتَشجيعِ الِاصطيافِ فيها. لأنَّ مُناخَها أَعجبَهُ. والآنَ، كأسُ فاضلْ بَيكْ!

وكانَتِ الخمرةُ قدْ **لَعِبَتْ في الرّؤوسِ**، فرَفعَ الجميعُ كؤوسَهُم قائلينَ:

ـ عاشَ فاضلْ بَيكْ شحرورْ! عاشَ الزّعيمُ فاضلْ بَيكْ! نحنا رِجالَكْ فاضلْ بَيكْ! عاشَ شيخُنا وزعيمُنا بو مِرْعي!

لعبت الخمرةُ في الرّؤوسِ: أثّرتْ في الشّاربين وأسكرَتْهم.

عندئذٍ تَهلَّلَ وَجهُ بو مِرْعي فَرَحاً، فقالَ، وقدْ رأى أنَّ النّاسَ **يقدِرونَ** زعامتَهُ ويَحترمونَ سُلطتَهُ:

ـ لَستُ أَدري يا شبابُ كَيفَ أَشكرُكُم. ولَكنْ كَفاكُمْ شُكراً وفَخراً وشَرَفاً أنْ تَكونوا مُخلِصينَ لوطنِكُم.

ولَكنَّ أَحدَهُم ـ طنّوسْ الفاعورْ ـ لَم يَقتنعْ بِكلامِ بو مِرْعي، فقالَ وكأنَّهُ يُريدُ أنْ لا يسمَعَهُ أَحدٌ:

ـ اللهُ **يَمحَقُهُم**! كُلُّهُم أَضربُ مِن بَعضِهِم.

ولَكنَّ بو مِرْعي، الّذي كانَ يَترقَّبُ كلَّ حركةٍ وكلَّ هَمسةٍ وكلَّ رَفّةِ جَفنٍ، سَمعَ هَذه الكلماتِ، فاحمرَّتْ عَيناهُ، وتورَّدَ خَدّاهُ العظميّانِ، وارتجفَتْ يَداهُ المَقدودتانِ كعودَيْ سِنديانٍ؛ غيرَ أنَّهُ تَكلَّفَ الإبتسامةَ، وقالَ لِطنّوسْ بَلهجةِ المُعاتِبِ:

ـ يا حَيْفُ يا طنّوسُ، يا حَيْفُ! ما كُنْتُ أَظُنُّ أنَّ مِثلَكَ يَشُكُّ في فهمِ بو مِرْعي! لَقَدْ تعلّمْتَ سنةً في «عَينطورةَ» يا طنّوسُ، وهَذا كفيلٌ بأنْ يَجعلَكَ تُميِّزُ

يَقدرونَ: يَحترمونَ ويُعظّمونَ.
يمحقُهُم: يُزيلُهُم، يُفنيهِم.

المُخلِصَ مِنَ المُحتالِ. لا، لا، إنَّكَ تَمزحُ ولا شَكَّ. وعلى كلِّ حالٍ يَجبُ أنْ تعلَمَ أنَّ بو مِرْعي لا يَختارُ إلّا المرشَّحينَ ذَوي الكفاءةِ، لأنَّ مَصلحةَ قريتِهِ وأبنائِها تُهِمُّه بقَدْرِ ما تُهِمُّه مَصلحتُه، بَلْ أكثرَ.

ولو كانَ طنّوسْ في مَوقفٍ غَيرِ هَذا الّذي كانَ فيه، لكانَ رَضيَ بما قالَهُ بو مِرْعي، ولو على مَضَضٍ. ولَكنَّهُ الآنَ - بمُساعَدةِ «دَمعةِ» العرقِ - تَنبَّهَ واستفاقَ، وكأنَّهُ سَئمَ رُضوخَهُ لرَجلٍ لا يَخدُمُ إلّا مَصالحَهُ مُتستِّراً بالخِدمةِ العامّةِ، فقالَ بشيءٍ مِنَ القَسوةِ:

- يا بو مِرْعي، أنا أَحترمُكَ وأَعتبرُكَ، فأنْتَ أكبرُ منّي سِنّاً وأكثرُ مُرونةً، وأوسعُ منّي خِبرةً لعِراكِكَ الطّويلِ معَ الأيّامِ. ولكنَّ الإنسانَ، كما تَعلمُ، مَهما يَبلُغْ كَمالُه، يَظَلُّ هو إيّاهُ، إنساناً غيرَ مَعصومٍ مِنَ الخطأ. لِذا يا بو مِرْعي أرى أنّكَ أخطأْتَ في انتقاءِ المرشّحينَ، وفاضلْ شحرورْ خصوصاً، فإنَّهُم لَيسوا أهلاً لأنْ يُمثّلونا ويَتكلَّموا باسمِنا. لقَدْ كانَ فاضلْ شحرورْ نائباً في المجلسِ السّابقِ، فماذا فَعلَ لبلادِهِ ولمَنطِقَتِهِ؟ هَل

أَبعدَ عنّا الأمراضَ النّاتجةَ مِنَ الأقـذارِ والفَقرِ؟ هَل حسَّنَ حالةَ الفلّاحِ؟ أو هَل طالَبَ يَوماً ما بشَقِّ طريقٍ (بو مِرْعي يَتَنحنَحُ) أو بِجَلْبِ تلفونٍ؟ هَل جرَّ المياهَ إلى بيوتِنا كما وَعدَ في المرّةِ الماضيةِ؟ لا! كلُّ ما سَمِعْناهُ وقَرأناهُ عَن فاضلْ شحرورْ هو أنَّهُ كانَ يُصفِّقُ ويُصفِّرُ ويُرسِلُ النِّكاتِ هُنا وهُناكَ في المجلِسِ. وها هو اليومَ يَعِدُ ويَعِدُ، ولَكنَّهُ لَن يَتعدّى حدودَ الوعودِ بعدَ انتخابِهِ، لأَنَّهُ عِندئذٍ لا يَبقى بحاجةٍ إلى طنّوسْ الفاعورْ وبو مِرْعي وأمثالِهِما!

ووَسْطَ وُجومِ الحاضرينَ واضطرابِ بو مِرْعي النَّفسانيِّ، سألَ محمودْ العِبري طنّوسْ الفاعورْ عَنِ المرشَّحِ الّذي يُريدُ أنْ يُصوِّتَ له، فقالَ طنّوسْ بشجاعةٍ يَدفعُها الفَقرُ واليأسُ في ذَوي النّفوسِ الطَّيِّبةِ:

ـ إنَّ الكفاءةَ لا تَتوافرُ في واحدٍ مِن هؤلاءِ. كلُّهُم مُـدَّعٍ، مَغرورٌ، كلُّهُم رَجعيٌّ يُريدُ أنْ يَظلَّ الشّعبُ غاطساً في جَهلِهِ وفَقرِهِ، كَي لا يَستطيعَ أنْ يُطالِبَ بحقوقِهِ أو أنْ يُحقِّقَ أهدافَهُ! ولَكنّني مَعَ هَذا سأَنتخِبُ.

نعَمْ سأنتخِبُ، ولَكنْ ليسَ على أساسِ الكفاءةِ ـ فليسَ هُنالِكَ كفاءةٌ كما قُلتُ ـ بَل على أساسِ الفُلوسِ. إنَّ مَنْ يَدفعُ لي أكثرَ يَنالُ صَوتي، فأنا رَجلٌ فقيرٌ، ومعَ أنّي مُتعلّمٌ أكثرَ مِن بعضِ هَؤلاءِ المرشَّحينَ، فإنَّني لا أجِدُ عملاً يَقيني ذُلَّ الطَّلبِ.

ووَقفَ طَنّوسْ بغَضَبيّةٍ وانصرفَ، فتَبِعَهُ محمودْ بعدَما استَصْوَبَ كلامَهُ، وتَبِعَهُما اثنانِ آخرانِ، بينَما ظلَّ الباقونَ عندَ بو مِرْعي، فجَدّدوا «الـولاءَ» له ولمُرشَّحيهِ، وتابعوا السَّهرةَ. ولَكنَّ السّرورَ كانَ مُصطَنعاً عندَ الجميعِ، وعندَ بو مِرْعي خصوصاً، فكانَتْ سَهرَتُهُم كرَقصةِ الثّكلى أو كزَغردةِ الذّبيحِ!

- 3 -

«هُنا بَيروتُ ـ محطّةُ الإذاعةِ اللّبنانيّةِ.

«أيُّها السّيّداتُ والسّادةُ، يَسُرُّنا أنْ نُعلِنَ على

يَقيني: يَحميني ويَستُرُني.
الوَلاءُ: الحُبُّ والصّداقةُ والنُّصرةُ.
الثّكلى: الأمُّ الّتي فقدَتْ ولدَها.

حضرتِكُم أسماءَ بعضِ الفائزينَ في دَورةِ الِانتخاباتِ الأولى لمَجلسِ النّوّابِ اللُّبنانيِّ، على أنْ نُوافِيَكُم بالأسماءِ الأُخرى عندَ صدورِ النّتائجِ تامّةً.

«وقدْ سَجّلَتْ قَوائمُ المُوالينَ انتصاراتٍ باهرةً في المَناطقِ كافّةً، فنالَتِ الحكومةُ بهَذا الأكثريّةَ السّاحقةَ في المَجلسِ النّيابيِّ.

«أمّا الفائزونَ الّذينَ عَرَفْناهُم حتّى الآنَ فهُمْ...».

وراحَ المُذيعُ يَسرُدُ أسماءَ الفائزينَ، وفي جُملَتِهِم فاضلْ بيكْ شحرورْ! وقدْ أَردفَ قائلاً:

«وقدْ جرَتِ الِانتخاباتُ في جوٍّ مِنَ الحُرّيّةِ والهدوءِ، وتَجلّتِ الدّيموقراطيّةُ بأكملِ مَظاهرِها، وهَذا ما دلَّ على وَعيٍ قَوميٍّ عميقٍ عندَ الشّعبِ اللّبنانيِّ الّذي يَعملُ للمحافظةِ على استقلالِهِ واختيارِ الرّجالِ المُخلِصينَ لصِيانتِهِ».

في هَذه اللّحظةِ كانَ أكثرُ سكّانِ القَريةِ يَنتظرونَ الأخبارَ، يَنقلُها إلَيْهِم الرّاديو الوحيدُ عندَهُم، ويَملِكُه بو سِمعانَ التّرشيشيُّ، وهو يَعملُ على البطّاريّةِ لعَدمِ



وجودِ الكَهرباءِ الّتي وعدَ بها فاضلْ بَيكْ شحرورْ! وما عَدِمَ بو مِرْعي أنَّ «مُرشَّحيهِ» قدْ فازوا جميعُهُم حتّى فَتلَ شاربَيْهِ إعجاباً بعَبقريَّتِهِ، وراحَ يُبشِّرُ أنصارَهُ بالخَبرِ وهو يَقولُ:

ـ أَفَلَمْ أَقُلْ لكُم إنّني أَستطيعُ أنْ أَختارَ المُرشَّحينَ «الأوادمَ»؟ اللهُ يَحفظُ لكُم بو مِرْعي حتّى يَظلَّ يَرعاكُم ويُسيِّرَ أُمورَكُم؛ يا أَولادي، الحياةُ خِبرةٌ، والمَثَلُ يَقولُ: «اسأَلْ مجرِّبْ ولا تَسأَلْ خبيرْ».

وأمّا أَخصامُ بو مِرْعي فقَدْ ذاقوا مِنْه الأَمرَّيْنِ. فكانوا إذا مَرّوا مِن أمامِهِ يَسمعونَ مِنَ الكلامِ ما لا تَستطيعُ أنْ تَفوهَ به عَجوزٌ **خَرقاءُ**... وكانوا إذا اجتمعوا هُم وبو مِرْعي في بيتِ أحدِ أهلِ القَريةِ، يَسمعونَ مِنْه مَواعظَ أخلاقيّةً ووطنيّةً، فكأنَّهُم أمامَهُ تَلاميذُ، وكأنَّهُ هو المعلِّمُ. وعلى الرَّغمِ مِن ذَلكَ لَم يَكُنْ أَحدٌ **ليَتجاسرَ** أنْ يَجرحَ كرامةَ بو مِرْعي بكَلمةٍ، لأنَّ شَعرَهُ الأبيضَ كانَ

الخرقاءُ: الحمقاءُ العبيّةُ.
يَتجاسَرُ: يَتجرّأُ.

يَجعلُه بعيداً عَن مُتناوَلِ الشّتائمِ.

وبنَتيجةِ هَذه المُخاصماتِ انقسمَ أهالي القَريةِ جَبهتَيْنِ، فإذا اقترَحَ بو مِرْعي أنْ يَكونَ بو يوسفْ الزَّعلولي ناطوراً، هبَّ الفريقُ الآخَرُ و«نظَّمَ» مَعروضاً مَلأَهُ بالإمضاءاتِ وبَصَماتِ الأصابعِ، وأرسَلَهُ إلى المَراجعِ المسؤولةِ مُحتجّاً على هَذا النّاطورِ، ناشراً سيرَتَهُ البَيتيّةَ السَّيِّئةَ، مُعدِّداً مَثالِبَهُ في السَّرقةِ والنَّهبِ والاِحتيالِ؛ وإذا طَلبَ هَذا الفريقُ إصلاحَ الطَّريقِ واختصارَ الأكواعِ، قامَ بو مِرْعي وأنصارُه يُعارضونَ المَشروعَ، طالبينَ أنْ تُشَقَّ الطّريقُ على حَسَبِ تَخطيطٍ جديدٍ لا يُضِرُّ بِمَصلحةِ أَحدٍ. وهَكذا كانَتْ هُوّةُ الشِّقاقِ تَتَّسعُ، ومَصالحُ القَريةِ تَذوبُ في بوتَقَةِ المَآربِ والمَصالحِ الشّخصيّةِ.

وكانَ يومٌ عادَ فيه أَحدُ المُغتربينَ مِنَ «الوِلاياتِ المُتّحِدةِ» يَحمِلُ مَبلغاً مِنَ المالِ تَبرَّعَ به أبناءُ القَريةِ

المثالبُ: العيوبُ.

البوتقةُ: وعاءٌ تُذابُ فيه المَعادنُ.

المُغترِبونَ، ليَجريَ استعمالُه في تحقيقِ أَحدِ المَشاريعِ العُمرانيّةِ للقَريةِ. وبَدَلاً مِن أنْ تَجمعَ هَذه الأموالُ شَمْلَ المُتَخاصِمينَ، وبَدَلاً مِن أن تُوَحِّدَ كَلمتَهُم، ازدادَ الخلافُ، واشتدَّتِ المُنافَسةُ: فئةٌ تُريدُ أنْ يُستعمَلَ المالُ المُتبرَّعُ به لجَرِّ المياهِ إلى البيوتِ، لأنَّ النِّساءَ سَئِمْنَ حياتَهُنَّ بالذَّهابِ إلى العَينِ؛ وفئةٌ أُخرى تُعارِضُ، فتَقترِحُ جَلْبَ الكَهرباءِ، لأنَّ الماءَ في مُتناوَلِ اليَدِ كلَّ ساعةٍ، والنِّساءُ رَهنُ الأوامرِ، فباستِطاعتِهِنَّ أنْ يَأتينَ بالماءِ، ولَكنَّهُنَّ عاجزاتٌ عَن توليدِ الكَهرباءِ! وأمّا المُغترِبُ العائدُ فقَدْ حارَ في أمرِ مُواطِنيهِ، وما لَبِثَ أنْ عادَ إلى حَيثُ كانَ، لاعناً قَريتَهُ وأبناءَ قَريتِهِ، مُؤْثِراً الموتَ في بِلادٍ ما ضَمَّتْ يوماً عَظْمةً مِن عظامِ أجدادِهِ، على البقاءِ في أرضٍ ديسَتْ فيها تِلكَ العِظامُ المبارَكةُ بأقدامِ المَكرِ والتَّنازُعِ والِانشقاقِ.

ولَم يَلبَثْ بو مِرْعي ـ وهو مِن أَعداءِ المرأةِ، وبالتّالي

سَئِمْنَ: مَلِلْنَ، ضَجِرْنَ.
مُؤْثِراً: مُفضِّلاً.

مِن أَنصارِ مَشروعِ الكَهرباءِ ـ أنْ شَكّلَ وَفداً لمُقابلةِ فاضلْ بَيكْ شحرورْ في «بَيروتَ» لَعَلّهُ يُساعِدُه على تَنفيذِ غايتِهِ والتَّغلُّبِ على مُناوِئيهِ. ومَن لَم يرَ بو مِرْعي على «ساحةِ البُرجِ» يَتقدَّمُ أعضاءَ الوَفدِ شامخاً بأَنفِهِ، مُنكِّساً لُبّادتَهُ إلى الأمامِ، ضارباً الأرضَ بعَصاهُ كأنّهُ موسى يَشُقُّ البحرَ الأحمرَ، مَن لَم يَرَهُ على هَذه الحالِ لَم يرَ مِن مَظاهرِ الزَّعامةِ إلّا قُشورَها: فقَدْ تَجَمْهرَ النّاسُ يَتفرَّجونَ بالنَّظرِ إلى هَؤلاءِ القَرويّينَ، بَينَ مازحٍ وجادٍّ، ومُحتقِرٍ و**مُكْبِرٍ**، وما كانَ ذَلكَ إلّا ليَزيدَ بو مِرْعي **تيهاً** وفخراً، ومِشْيَتَهُ اتّزاناً ونِظاماً!

ولَكنَّ «بَيروتَ» هي بلدُ المُفاجَآتِ للقَرويّينَ، والسَّرايُ بلدُ المفاجآتِ في «بَيروتَ». لِذا لَم يَكُنْ مِنَ المُستغرَبِ أنْ تَثورَ ثائرةُ بو مِرْعي حينَ طلبَ مقابلةَ فاضلْ بَيكْ شحرورْ، فرَفضَ الحاجبُ السَّماحَ له بذَلكَ لأنَّ البَيكَ مشغولٌ.

مُكبِراً: مُعظِّماً ومُقدِّراً.

التِّيهُ: التّكبُّرُ.



ـ مشغولٌ! إنّكَ ولا شكَّ لا تَعرِفُني. أنا بو مِرْعي، مِن أنصارِ البَيكِ وأعوانِهِ في الانتخاباتِ، وهو مِن أعزِّ أصدقائي. قُل له إنّ بو مِرْعي وبعضَ الشّبابِ يُريدونَ أنْ يُكلِّموهُ حالاً في مسألةٍ حَيَويّةٍ.

ـ ولَكِنْ يا أفندي البَيكُ مَشغولٌ.

ـ لا مشغولٌ ولا بَلّوطٌ، قُل له إنَّ بو مِرْعي يُريدُ أنْ يُقابِلَهُ، وإلّا...

ـ حاضرٌ يا أفندي، على رأسي وعَيني.

ودخلَ الحاجبُ حانقاً يُعلِنُ للبَيكِ قُدومَ الجماعةِ. ثُمَّ خرجَ ليَصْعَقَ بو مِرْعي بقَولِهِ:

ـ انتظروا قليلاً، سأدعوكُم بعدَ بُرهةٍ.

وانتظرَ بو مِرْعي وهو يَتَّقِدُ غيظاً، ويَلعَنُ السّاعةَ الّتي فيها صوّتَ لفاضلْ بَيكْ وأمثالِ فاضلْ بَيكْ. ودامَ الانتظارُ طويلاً، والسّاعةُ تلوَ السّاعةِ تَمرُّ. عِندَئذٍ لَم يَبقَ باستطاعةِ بو مِرْعي أنْ يَصبِرَ، ففَتحَ بابَ المكتبِ على غَفلةٍ مِنَ الحاجبِ، ومِن غَيرِ سابقِ استئذانٍ، فرأى فاضلْ بَيكْ يَتصفّحُ إحدى الجرائدِ، وأمامَهُ

نارَجيلَةً، وقَدَماهُ على الطّاولةِ؛ فذُهِلَ فاضلْ بَيكْ لِهَذه «الوَقاحةِ»، وكانَ بِوُدِّهِ أنْ يَأمرَ بطَردِ هَذا الزّائرِ الفُضوليِّ لو لَم يُبادِرْهُ بو مِرْعي بقَولِهِ:

ـ نَهارُكَ سعيدٌ يا حَضرةَ البَيكِ.

ـ أمرٌ يا بو مِرْعي. خِدمةٌ!

ـ سلامتُكَ يا بَيكْ... إنّما طالَ وقتُ انتظاري أنا والشّبابِ، وقَدْ أَتَينا نَسألُ عَن خاطِرِكُمُ الكريمِ، ونَحتجُّ أمامَ الحكومةِ على شَقِّ طريقٍ على حَسَبِ التّخطيطِ الحاليِّ، ونَطلبُ جَرَّ الكهرباءِ إلى قريتِنا بعدَ أنْ عتَّمَتْ قلوبُنا مِنَ الكازِ والقناديلِ.

ـ أنتَ تَعرِفُ يا بو مِرْعي مَدى حُبّي واحترامي لكَ. وأنتَ تَعرِفُ أيضاً أنّي لا أَتأخّرُ مُطلَقاً عَنِ التّضحيةِ في سبيلِ مصلحةِ قَريتِكُمُ الحبيبةِ لقَلبي. ولَكِنْ يا بو مِرْعي... المسألةُ فيها شيءٌ مِنَ التّعقيدِ. فأنا في هَذه الأيّامِ مشغولٌ كثيراً كما تَرى (بو مِرْعي يَبتسِمُ)، ثُمَّ إنّ وزيرَ الأشغالِ ليسَ مِن حِزبِنا، وليسَ بَيْني وبَيْنَهُ اتّصالٌ وثيقٌ. أفلَيْسَ مِنَ الأفضلِ أنْ تَذهبوا وتُكلِّموا

وزيرَ الأشغالِ مباشَرةً؟... وأنا سأَبْذُلُ جُهدي لمُساعَدتِكُم.

- ولَكِنْ يا بَيكُ، نحنُ ليسَ لنا غَيرُكَ؛ نحنُ انتخبْناكَ لتُساعِدَنا، لا ليُساعدَنا وزيرُ الأشغالِ الّذي لا نَعرِفُه ولا يَعرِفُنا، والّذي كُنّا ضِدَّهُ في الِانتخاباتِ إكراماً لكَ.

- يا بو مِرْعي حَرِّبْ أنْ تَفهمَ. قُلتُ لكَ إنَّ المسألةَ صَعبةٌ، لأنَّ هُنالكَ خِلافاتٍ مبدئيّةً بَينَنا وبَينَ الوزيرِ. وأنتَ تَعرِفُ قيمةَ المبادئِ عِندي.

- إذاً...

- لا سبيلَ إلى اتِّصالي بالوزيرِ مُباشَرةً. كَلِّموه أنتُم وأنا أُساعدُكُم.

وكانَ فاضِلْ بَيكْ يَتكلَّمُ بخفاءٍ أزالَ مِن فمِ بو مِرْعي طعمَ العسلِ الّذي كانَ يَذوقُه مِنْه قبلَ الِانتخاباتِ.

وظَهرَ **السُّخْطُ** والِاستخفافُ و**الخَيبةُ** على وَجهِ بو مِرْعي، فشَعَر فاضِلْ بَيكْ أنَّهُ خَيَّبَ ظَنَّ ناخبِهِ، فقالَ:

السُّخْطُ: الغضَبُ.

الخَيبةُ: الإخفاقُ وعَدَمُ نَيلِ المطلوبِ.

ـ وَلَوْ يا بو مِرْعي... أَتعرِفُني بخيلاً أو مُتقاعساً؟ لَو طَلبْتَ نورَ عَيني لما بَخُلْتُ به عليْكَ. ولَكِنْ...

فقاطَعَهُ بو مِرْعي قائلاً، وقَدْ أدركَ خطأَهُ في انتحابِ هَذا البَيتِ، وعَرفَ أنَّ النّاسَ يَبحثونَ عَن مَصالحِهِم كما يَبحثُ هو أيضاً عَن مَصالِحِه:

ـ يا بَيْكُ، سلامةَ عيونِكَ. ولكِنْ لَعنَ اللّهُ تِلكَ السّاعةَ الّتي فَقَدْنا فيها نورَ أَعيُنِنا فلَم نرَ في ظُلمَتِنا إلّا فاضلْ بَيكْ وزُمرَتَهُ. أَستودِعُكَ اللّهَ!

عادَ بو مِرْعي إلى القَريةِ معَ الوفدِ وهو يُردِّدُ على الطّريقِ، ويُـردِّدُ في القَريةِ، وقَدْ عَنَّ على بالِهِ أَحدُ النُّوّابِ السّابقينَ المُضْطَهَدينَ:

ـ لا تَذْكروني حتّى تُعاشِروا غَيري!

الزُّمرةُ: الجماعَةُ.

قصة

في سبيلِ اللُّقمةِ

لَم يَنقطِعْ سَيلُ الأقدامِ والحَوافِرِ طَوالَ اللّيلِ.

كانَتِ القُوّاتُ العُثمانيّةُ تَنصَبُّ مِن «حَمّانا» إلى «بْحَنّسَ» عَبْرَ الوادي الّذي تَقومُ على كَتِفٍ مِن أكتافِهِ القَريةُ الصّغيرةُ. وكانَتِ الطّريقُ المُلتوِيَةُ تَبدو، إذا ما نُظِرَ إلَيْها مِن عَلُ، حَلَزونةً تُزَنِّرُ السّفحَ المُستديرَ تزنيراً، ذَنَبُها فوقُ، في حَرَجِ «قِرنايلَ»، ورأسُها تَحتُ، يَختفي حَيثُ خطُّ الالتقاءِ الّذي يُقيمُه النّظرُ بَينَ جبلِ «صَليما» وسَفحِ جَبلِ «برُمّانا» الشّرقيّ. وكانَ أكثَرُ بيوتِ القريةِ مَشروراً على الطّريقِ، يَنعطِفُ معَها حينَ تَنعطِفُ، ويَصطفُّ مُستقيماً حينَ تَستقيمُ، فكأنَّ البيوتَ هِي

الحرجُ المكثُّ الكثيرُ الأشجارِ، الغبةُ (الحرشُ بالعاميّة)

الّتي جارَتِ الطّريقَ في **نَزَواتِها** ولَيسَتِ الطَّريقُ هِي الّتي شُقَّتْ هَكذا لمُراعاةِ حاجةِ البيوتِ والسُّكّانِ والعَرَباتِ. وبنتيجةِ هَذا **الوِصالِ المُستهامِ** بَينَ الطّريقِ والبيوتِ أَرِقَتِ القَريةُ تلكَ اللّيلةَ، فجَمَدَتْ عيونُ أبنائِها، وتَسمَّرَتْ **أهدابُهُم**، وعَلِقَتْ في حَلاقيمِهِم غُصصٌ تُزحلِقُها صُعوداً وهُبوطاً أنفاسُهُم المُترَجْرِجةُ المُترَدِّدةُ، و**وَجَفوا** مِن أنْ تَخترقَ جُدرانَهُم خَفَقاتُ قلوبِهِم **فتَصُكَّ** آذانَ الجنودِ فيَتَوقّفوا، ويا وَيلَ القَريةِ إنْ فَعلوا، ويا وَيلَ سكّانِها، والبيوتِ وما تَبقّى فيها!

عَبَثاً حاوَلَ النُّعاسُ أنْ يُغرِيَ عينَيْ حِرْبِسَ بالاستسلامِ. كانَ يَتملَّقُه بمَواعيدَ شَتّى، فيُلوِّحُ له بالفراشِ الدّافئ، ويُمنّيهِ بغَفوةٍ تَطرُدُ الوَساوِسَ؛

النّزوات: مفردُها النّزوةُ وهي الوثبةُ والطّموحُ والنّزوعُ.
الوِصالُ: اللّقاءُ والاتّصالُ.
المُستهامُ: المجنونُ مِن العِشقِ.
الأهدابُ: مفردُها الهُدْبُ أو الهدَبُ وهو شَعرُ أشفارِ العينِ.
وَجَفوا: اضطرَبوا وخَفقَتْ قلوبُهُم.
صكّ: ضربَ شديداً أو لطَمَ.

وجِرْيسُ يَزدادُ اندِساساً بأخيهِ، وأخوهُ مُندَسٌّ بأمِّهِ، والأمُّ واقفةٌ إلى حافَةِ النّافذةِ، ترى بطَرَفِ عَينٍ إلى ظهورِ الجُنودِ والخَيلِ والبِغالِ مُوَلِّيَةً مُسرِعةً... كانَتِ الطّريقُ وكأنَّها شُقَّتْ في وَسَطِ الغُرفةِ، فكلُّ وَطأةِ حافرٍ تَرتَجُّ لها الأركانُ، وكلُّ أمرٍ يَقصِفُ به ضابطٌ تَتقاذفُه الجُدرانُ، وخَيالاتُ الدَّوابِّ والبَشَرِ تَنعكِسُ على الحائطِ الدّاخليِّ المُقابِلِ، صغيرةً، فكبيرةً، فعِملاقةً تَشمُلُ الحائطَ وقِسماً مِنَ السَّقفِ حينَ يَمرُّ أصحابُها قُبالةَ النّافذةِ ويَختفونَ بسُرعةٍ.

كانَ القمرُ بَدراً يُضيءُ الطّريقَ بنهارٍ أبيضَ مُصْفَرٍّ، فيَبعثُ في القلوبِ رُعباً أكبرَ؛ ذلكَ لأنَّ الأمَّ كانَتْ تَشعرُ بأنَّ مَسرحاً للأنظارِ يَنبسِطُ داخلَ بيتِها، كهذا المَسرحِ المُنبسِطِ أمامَها في الطّريقِ، فتُحِسُّ بأنَّ العيونَ **تَتحرّاها**، وبأنَّ الدَّوابَّ تُشيرُ إلَيْها برؤوسِها، فتُجفِلُ إثْرَ كلِّ حاطرةٍ مُزعجةٍ، وتَشدُّ بمَشلحِها الصّوفِ حَولَ كَتِفَيْها دَفعاً لعيونٍ كانَتْ تَتوَهَّمُها. لَم تَكُنْ هكذا قَبلَ

تَتحرّاها: تُلاحقُها وتَسعى وراءَها.

الحربِ، بَلْ لَم تَكُنْ هَكذا في مَراحلِ الحربِ الأولى. كانَتْ في كَنَفِ زَوجِها، تَتقوّى بساعِدَيْهِ، وبصَدرِهِ العريضِ، **تَفزَعُ إلَيْهِ** كُلَّما **اعْتَراها** مِن وَساوِسِها **اعتكارٌ**، فتَطمئِنُّ إذ تَعتصِرُها ذِراعاهُ، وتُنصِتُ إلى دقّاتِ قلبِهِ الكبيرِ... أمّا الآنَ فالبيتُ ذَهبَ حاميهِ ولَم يَعُدْ... ذَهبَ في قافلةٍ مِن شبّانِ القَريةِ إلى «حَورانَ» ليَأتوا بشيءٍ مِنَ القمحِ، فعادَ مِنَ القافلةِ فريقٌ يُجرِّرُ أذيالَ الخَيبةِ والجوعِ، وتَخلّفَ آخَرونَ ماتوا بَرداً في اللّيالي البيضِ، أو زَرعَتْ صدورَهُم بنادقُ **شُذّاذِ الآفاقِ**.

انتهى تَدفُّقُ الجيشِ بعدَ مِضيِّ ساعاتٍ، وانقطعَ **رَجعُ صَدى** الجَلَبةِ الّتي كانَ ما يَزالُ يُحدِثُها في القِطاعِ الأسفلِ مِنَ الطّريقِ. وكانَ القمرُ قدْ بَدأَ يَغيبُ، ثُمّ

تفزعُ إليْه: تلجأُ إليْهِ.

اعتراها: أصابَها.

الاعتكارُ: السّوادُ، والمقصودُ سَوادُ النّظرةِ أي التّشاؤمُ.

شُذّاذُ الآفاقِ: الغُرباءُ.

رجْعُ الصَّدى: ما يردُّه علَيْكَ المكانُ الخالي إذا صوّتَّ فيه

غابَ تماماً مُخلِّفاً الدُّنيا في ظلامٍ رادٍ في **دُموسِهِ** ذلكَ الضّوءُ الوَضّاءُ الّذي سَبقَهُ. وتَراجعَتِ الأمُّ معَ ولدَيْها عَنِ النّافذةِ، وعَمدَتْ إلى **اللّقْشَةِ** فأَشعلَتْها لجَولةِ مُراقَبةٍ أخيرةٍ على الفِراشِ الّذي سيَضُمُّ الأجسادَ الثّلاثةَ مِن جديدٍ.

لَم يُمهِلْ جِرْيسُ أمَّهُ، بَل سارعَ إلى الفِراشِ وغَرِقَ فيه، فكأنَّ حَشَراتِ **السّوامِّ أَبْرَصَ** الّتي كانَتْ تَتساقَطُ أَحياناً مِنَ السّقفِ **المُتَداعي**، وتَذْرَعُ اللِّحافَ، وتُقِضُّ علَيْهِ هناءةَ نومِهِ، قدْ أَصبحَتِ الآنَ أَوهاماً. كانَ في النّهارِ يَسرحُ حافياً ولا يَترُكُ عملاً مِن أعمالِ الشّقاوةِ إلّا ويُمارسُه: إذا لمحَ صوصاً طاردَهُ حتّى خُمِّهِ وأقامَ في فصيلةِ الصّيصانِ قِيامتَها؛ وإذا لمحَ بو مِرشِدْ في شمسِ الشّتاءِ يَستعيدُ بعضَ الحرارةِ، وذَقنُه على عَصاهُ،

الدُّموسُ السّوادُ الشّديدُ.

اللّقشةُ أو اللّقشُ عندَ العامّةِ حشبٌ يُستخرَجُ منه النارُ (الزّفتُ) ويُستصنَعُ منه، كالأرزِ والصّنوبرِ وغيرِهما.

السّوامُّ أبْرص مفردُها السّامُّ أبرصَ وهو دويبّةٌ تُعرفُ بأبي بُريصٍ.

المُتَداعي: البالي المتصدِّعُ.

سَحَبَ العَصا عَنِ الأرضِ بسرعةٍ وهرب؛ وإذا ما وَقَعَ على زبيبٍ **مَسطوحٍ** تَسلَّلَ إلى السّطحِ وأكلَ مِنْه غيرَ عابئٍ **بماءِ الصَّفوةِ** الّذي رُشَّ به. حتّى إذا ما حَلَّ اللّيلُ، وتَعالَتْ في الحقولِ وَلْوَلاتُ بَناتِ آوى، استحالَ أرنباً مذعورةً يُلازِمُ أمَّهُ وأخاهُ، ونَظَراتُه أبداً مُتنقّلةٌ تَبحثُ عَن كائناتٍ يَشعُرُ بها دونَ سِواهُ: في السّقفِ حَيثُ كانَتِ الحَشراتُ تَتحوَّلُ إلى ضَوارٍ، وخِلالَ النّافذةِ حَيثُ كانَ يُؤلِّفُ من الخَيالاتِ العابرةِ والأصواتِ البعيدةِ جَوقاتٍ مِنَ الشّياطينِ تَملأُ الجوَّ **عزيفاً** وتُشبعُ السّاحةَ رقصاً. وهو، اللّحظةَ، يُغمِضُ عينَيْهِ كَي لا يَرى نورَ اللّقشِ، فقَدْ كانَ الضَّوءُ المُنبعِثُ مِنْه يَحملُ معَهُ دخاناً يَنعقِدُ في الغُرفةِ راسماً في كلِّ مكانٍ أشكالاً لَم يَكُنْ جِرْيِسُ لِيَمُرَّ بها، مِن غَيرِ أنْ يوليَها مِن خَيالِه ما

المَسطوحُ: المفروشُ على السّطحِ لتجفيفِه.

ماءُ الصّفوةِ: الصّفوةُ هي الرّمادُ، وماءُ الصّفوة هو الماءُ الّذي يُنقعُ فيه الرّمادُ.

العزيفُ: الصّوتُ والغناءُ.

يُجسِّمُها ويُحوِّرُها. ولقَدْ لَعنَ اللُّقشَ كُلَّما خيَّمَ في الأرضِ الظَّلامُ، ونَغَّصَهُ القِنديلُ المُعلَّقُ إلى حاجبِ البابِ خالياً وقَدْ **أُسقِط في يدِهِ**، كمُقعَدٍ يَشهَدُ الكارثَةَ ولا يَستطيعُ أنْ يُسعِفَ. نَسيَ النّاسُ ضَوءَ القِنديلِ مِن زمانٍ، فعَمدوا إلى السِّراجِ، ثُمَّ جفَّ الزَّيتُ والكازُ مِنَ البيوتِ فلَجؤوا إلى اللُّقشِ.

مَضَتْ على جِرْيِسَ فَترةٌ وهو في الفِراشِ يُفكِّرُ، ثُمَّ اندسَّ قُربَهُ أخوهُ فاستعادَ بعضَ طُمأنينتِهِ. ثُمَّ أطفأَتْ أمُّهُ اللُّقشَ، واندسَّتْ بِدورِها إلى جانبِهِما، فسَكَنَتْ نَفسُه وطابَتْ، وغابَ الثّلاثةُ في نومٍ مُثقَلٍ...

لَم تُصدِّقِ الأمُّ أنَّ الصُّبحَ قدْ لاحَ، فالظُّلمةُ ما زالَتْ حالكةً لا يَرى المرءُ خِلالَها إصبعَهُ إذا مدَّها. إلّا أنَّ حركةَ **سابلةٍ** كانَتْ تَملأُ الطَّريقَ جيئةً وذِهاباً، ولا كَلِمةَ، فكأنَّ النّاسَ مَشغولونَ عَنِ الحديثِ بالتَّجوالِ. وكانَتْ تُحدِّقُ إلى النّافذةِ لعلَّها تَرى شَبحاً تَعرِفُه،

أُسقِطَ في يدِهِ: نَدِمَ وتَحيَّرَ وتَحسَّرَ.

السّابلةُ: المارّةُ.

فكانَتْ تَسمعُ الحركَةَ إذْ يَمرُّ أَحـدٌ تُجاهَ النّافذةِ، ولَكنَّها لا تَرى شيئاً. وما هي إلّا دقائقُ حتّى تَوقَّفَ أشخاصٌ قُربَ بابِها، وقَرعوا، فتَردّدَتْ **باديَ ذي بَدءٍ** في الجوابِ؛ ولَكنَّها أدركَتْ أنْ لا مجالَ لِلتَّهرُّبِ، لأنَّ القَرعَ تَواصلَ واشتدَّ، ورافقَهُ صوتٌ عالٍ:

ـ افتَحي يا مَرْيمُ. افتَحي.

وصاحَتْ مَرْيمُ بقوّةِ الخوفِ:

ـ مَن؟؟

ـ افتَحي! أنا جبّورٌ.

ولمّا وَثِقَتْ بأنَّ المختارَ هو الطّارقُ هبّتْ إلى اللّقشةِ وهِي تَتساءلُ عَن سببِ هَذه الزّيارةِ. وأَلقَتْ على كَتفَيْها مَشلَحَها وردَّتْهُ إلى صَدرِها وأَمسكَتْ به مضموماً بيَدٍ، وفتحَتْ بالأُخرى. واستطاعَتْ أنْ تُميِّزَ وجهَ جبّورٍ بعدَ ما أَدنَتِ اللّقشةَ مِنْه، ومَيَّزَتْ كذلكَ اثنَينِ مِن أعضاءِ الإختياريّةِ. وبادرَها جبّورٌ:

باديَ ذي بَدءٍ: قبلَ كلِّ شيءٍ، أوّلَ الأمرِ.

- بِلا طولِ شرحٍ. جيشُ السُّلطانِ مَنصورٌ. في القَريةِ فِرقةٌ حديدةٌ مِنَ العَسكرِ نَصبَتْ خِيامَها قُربَ العينِ. هيِّئي ما تَستطيعينَ مِن أكلٍ هديّةً لهُم. سنَعودُ بعدَ قليلٍ.

وانصرفَ الثّلاثةُ، وبقيَتْ يدُ مَريمَ على البابِ المفتوحِ. هِي تَعلمُ جَيّداً أنَّ السُّلطانَ ليسَ مَنصوراً، وتَعلمُ أنَّ الأتراكَ والمُتترِّكينَ يُروِّجونَ للإشاعاتِ تَهويلاً وتَزييناً، وتَعلمُ أنّ ما يُقدَّمُ لِلجنودِ ليسَ على سبيلِ الهَديّةِ والمكافأةِ، بَل على سبيلِ إسكاتِ الجوعِ الّذي طوَّحَ بالجيشِ كما طوَّحَ بالسّكّانِ... ولَكنَّها لا تَعلمُ بأيِّ مَنطقٍ وأيِّ حقٍّ يُطلَبُ إلى جائعٍ إطعامُ مُجوِّعِهِ الجائعِ! وهَبْ أنّها تَملِكُ شيئاً، فهَل أَحَقُّ مِن ولدَيْها بِه؟ وهَبْ أنّها لَم تُقدِّمْ شيئاً، فإنَّ جبّوراً ذا الضّميرِ العفِنِ لَن يَتورَّعَ عَن أنْ يَشيَ بها، وهي لا تَملِكُ لِدَفعِ المكروهِ حيلةً ولا حَولاً.

طوّحَ به: ألقاهُ في المَهالِكِ والمصائبِ.
دَفعُ المكروهِ: ردُّ المُصيبةِ وإبعادُها.
الحَولُ: القُدرةُ.

ردَّتِ البابَ برِفقٍ، وتقدّمَتْ مِنَ الفِراشِ تَتفقَّدُ ولدَيْها، فوجدَتْهُما مُستيقظَيْنِ يَنظرانِ إلَيْها وفي أَعيُنِهِما سؤالٌ. ولمّا نَقلَتْ إلَيْهِما نبأ وُجودِ الجنودِ في القَريةِ، طَرحَ جِرْيِسُ اللِّحافَ عَنْه وعَن أخيهِ استعداداً لأحـداثِ النَّهارِ... أجَـلْ، ستَكونُ أحداثاً جِساماً تَتحدَّثُ عَنْها القَريةُ إلى حينٍ! سيَحومُ حَولَ الجنودِ كما كانَ يَفعلُ في كلِّ مرّةٍ يُعَسكِرونَ بها في القَريةِ، وسيَقومُ أمامَهُم بحَركاتِهِ المُضحِكةِ الّتي تَجعلُهُم يُحيطونَ بهِ مُتهجِينَ، ثُمَّ سيَتحيَّنُ الفُرصةَ ويَنتزِعُ عَن رأسِ أَحَدِهِم قُبّعتَهُ ويَعتمِرُ بها ويُطلِقُ ساقَيْهِ للرّيحِ، فيَلحقُ به هَذا، حتّى إذا ما أَشرفَ على إدراكِهِ طرحَ جِرْيِسُ القُبّعةَ أرضاً يُلهيهِ بها، واختَفى. هَذا والجنودُ يُغرِبونَ في الضَّحِكِ. أمّا مَرْيَمُ فقَدِ انصرفَتْ إلى إحصاءِ مَؤونةِ البيتِ، فإذا هِي لا تُجاوِزُ بضعَ بيضاتٍ، وشيئاً مِنَ اللّبنةِ، والسَّعترِ، والتّينِ المَغليِّ، والزّبيبِ، ودجاجتَيْنِ،

أغرَبَ: بالَغَ في الضَّحِكِ.

وبِضعةَ أَرغِفةٍ سودٍ مِن خُبزِ الشّعيرِ. وحارَتْ في أمرِها: ماذا تَترُكُ، وماذا تُقدِّمُ؟ ثُمّ حَزمَتْ أمرَها في النّهايةِ على أنْ تُعطيَهُم البيضاتِ وبعضَ الخُبزِ. ولَكِنْ لمّا عادَ المُختارُ ورفيقاهُ ألمحَ أنَّ الهديّةَ ليسَتْ على قَدْرِ المَقامِ، وأنَّ باستطاعةِ مَرْيَم، إذا أرادَتْ أنْ تَحتفِظَ بعطفِ السُّلطانِ وسُلُطاتِهِ، أنْ تُضيفَ إلَيْها دجاجةً مِنَ الدّجاجتَيْنِ. وهَكذا كانَ.

ولمّا أطلَّتْ تَباشيرُ الصُّبحِ مِن وراءِ «جبلِ الكُنَيْسَةِ»، كانَ جِرْيِسُ قدْ تَسلَّلَ مَعَ بعضِ رُفقائِهِ إلى العينِ. راحوا يُراقبونَ المُعسكَرَ على مَرمى حَجرٍ، مُحاولينَ استكشافَ ما يُمكنُهُم أنْ **يُفيدوا** مِنْه وما يُمكنُهُم أنْ يَجْنوهُ مِن مُتعةٍ. وكانَ بعضُ الجنودِ يَخرجونَ مِن خيامِهِم ثُمّ يَعودونَ إلَيْها وهُم لا يُلقونَ إلى الأولادِ بالاً. وقفَ جِرْيِسُ مأخوذاً بكَثرةِ الخِيامِ والدَّوابِّ، حتّى إنَّهُ، على جوعِهِ، كانَ يَنسى أنْ يَقضِمَ رغيفَ

التَباشيرُ: أوّلُ كلِّ شيءٍ.
يُفيدوا: يَستفيدوا.

الشّعيرِ الّذي مَسحَتْ عليْهِ أمُّه بعضَ اللّبنةِ ولفّتْهُ له. كانَ هَذا الرّغيفُ **منّاً وسَلوى** سقَطا على حرِيصٍ مِنَ السّماءِ. وهَل أعجَبُ مِن رؤيةِ رغيفٍ كاملٍ في يدِ ولدٍ في زمنٍ **عزَّ** فيه الرّغيفُ على عائلةٍ بكامِلِها؟ والواقعُ أنَّ أمَّهُ جادَتْ بما جادَتْ به، لا **إفراطاً** ولا غِنىً، فقَدْ كانَتْ تَقسِمُ الرّغيفَ أقساماً تَدفَعُ بها إلى ولدَيْها على **كَرّاتٍ** مُتفاوِتةٍ تَستغرِقُ في بعضِ الأحيانِ أيّاماً؛ أمّا اليومَ فقَدْ فعلَتْ ما فَعلَتْ خوفاً مِن أنْ يَنتزِعَ **زَبانيةُ** السّلطانِ ما تَبقّى لدَيْها. وخَرجَ مِن إحدى الخِيامِ جُنديٌّ، فوقعَتْ عَيناهُ على الجماعةِ، فنَظرَ إلَيْهِم مَليّاً، ثُمَّ عادَ إلى الخَيمةِ وخَرجَ مِنها معَ زميلٍ له كانَ ما يَزالُ يَرفعُ سِروالَهُ ويُزرِّرُه، فوَقفَ هَذا قُربَ الخيمةِ حتّى فرَغَ مِن شدِّ حِزامِهِ، ثُمَّ توجَّهَ وزميلَهُ إلى النُّقطةِ الّتي عَسكرَ

المَنُّ والسَّلوى: العسلُ.
عزَّ الشّيءُ على فلانٍ: قلَّ فلا يكادُ يوجدُ ولا يُقدرُ عليه.
إفراطاً: تبذيراً.
الكرّاتُ: مفردُها الكرّةُ أي المرّةُ.
الزّبانيةُ: الشُّرطُ، رجالُ الشُّرطة.

فيها جِرْيسُ وصَحبُه. ولمّا أَصبحَ الجُنديّانِ على مَقرُبةٍ مِنْهُم راحا يَبتسمانِ ويُشيرانِ بأَيديهِما أنِ اقتَربوا، ويَنطِقانِ ببعضِ الكَلماتِ التُّركيّةِ. ولَم يَدرِ جِرْيسُ لماذا نَفرَ قلبُه مِنْهُما، على غَيرِ عادةٍ، ولماذا خافَ، على غَيرِ عادةٍ أيضاً، لأنَّه لَم يَخَفْ يوماً، في النّهارِ، شيئاً أو أَحداً. ولِذا وَجدَ نفسَهُ يَتراجعُ كلَّما ازدادَ الجُنديّانِ مِنْه اقتراباً، مِن غَيرِ أنْ يُزيحَ نَظرَهُ عَنْهُما، وكانَ الأولادُ وراءَهُ يَتراجعونَ مِثلَهُ. وفجأةً تَوقَّفَ الجُنديّانِ، ونظرَ أَحدُهما إلى الآخَرِ، وتَمتَما شيئاً زادَ جِرْيسَ حذَراً وتأهُّباً. وكالبرقِ الخاطفِ انقضَّ أَحدُ الجُنديّيْنِ على الأولادِ وأَنظارُه عالقةٌ بجِرْيسَ، فسارعَ هَذا ومَن معَهُ إلى الهربِ **مُعْولِينَ**. وشعرَ جِرْيسُ، وهو يَتلفتُ كلَّ بضعةِ أمتارٍ إلى الوراءِ، بأنَّ المطاردةَ جِدّيّةٌ، وبأنَّ المسافةَ الّتي تَفصِلُ بينَ الفريقَيْنِ تَتضاءلُ، وشَعرَ بضَرورةِ زيادةِ سُرعتِهِ، فحَوّلَ كلَّ جُزءٍ مِن أجزاءِ جسدِهِ

مُعْولِينَ: رافعينَ أصواتَهُم بالبكاءِ والصّياحِ.



كُتلةً مُحرِّكةً تُحاولُ أنْ تُوفِّرَ مِنَ السُّرعةِ ما استطاعَتْ. وفيما كانَ يَرفعُ يدَيْهِ ويَخفِضُهما كمِجذافَيْنِ سقطَ مِنْه الرّغيفُ، فسقطَ معَهُ قلبُه. وبطريقةٍ لا شعوريّةٍ خفّفَ سرعتَهُ والتفتَ إلى ثروتِهِ الّتي أفلتَتْ، وأرادَ أنْ يَتوقّفَ. إلّا أنَّ حُبَّ البقاءِ دفعَهُ إلى سيرتِهِ الأولى، بَلِ لقَدِ ازدادَتْ سُرعتُه ليُعوِّضَ النّقصَ الّذي حصلَ فيها خلالَ الثّواني الماضيةِ. وكَم كانَتْ دَهشتُه عظيمةً حينَ رأى الجُديَّ يَصلُ إلى الرّغيفِ فيُطبِقُ علَيْهِ إطباقةَ البازِ على الطّريدةِ، ثُمَّ يُمسِكُ بخِناقِهِ بكِلْتا يدَيْهِ، ويُعمِلُ فيه أسنانَهُ قَضماً وطَحناً. صُعِقَ جرْيسُ، وقَدْ هالَهُ أنَّ الجُديَّ كانَ لا يَقصِدُ الأولادَ بَلِ الرّغيفَ، وهالَهُ فَقدُ رَغيفِهِ، زادِ يومِهِ، ورُبّما زادِ غدِهِ. وألهبَ حُرقتَهُ أنَّ الرّغيفَ لَم يَنقُصْ إلّا قليلاً، فهو لَم يَتمتَّعْ به إلّا بمقدارِ قَضَماتٍ معدوداتٍ. وانفجرَ في بكاءٍ مريرٍ تُرافقُه عاصفةٌ مِنَ الشّتائمِ، ثُمَّ جمعَ بعضَ الحجارةِ وراحَ يَقذِفُ الجُديَّ، وهَذا واقفٌ يَنظرُ إليْهِ ويأكلُ، لا يَرى ولا يَسمعُ.

عنترُ

- يـ. . .ـا عادلُ. . .

- . . .

يـ. . .ـا عادلُ. . .

- . . .

وانتظرَ بو محبوبٍ هُنَيهةً لعلَّهُ يَسمعُ جوابَ النّداءِ. ثُمّ **عادَ على عَقِبِهِ** أمامَ **شُوارِ** السُّطَيْحةِ حَيثُ كانَ يُنادي ابنَهُ عادلاً، وكانَ «سارحاً» بالبَقَراتِ في الحقلِ **السّاجي** على قَدمِ الحبلِ المُقابِلِ. بَيدَ أنَّ نداءَهُ

عاد على عقبه: عاد من حيثُ أتى.
الشُّوارُ: الطَّرفُ والحافّةُ (عاميّة).
السّاجي: المُمتدُّ.

تَكسَّرَ أصداءً حفيفةً فأحَفّ، تَقاذفَتْها الصّخورُ الزُّرْقُ المُتراصَّةُ على **لِحْفِ الجبلِ**، ثُمَّ سادَ السُّكونُ. إنَّ بو محبوبٍ لَعَلى يَقينٍ أنَّ ابنَهُ هُناكَ، لأنَّ بَقَرتَهُ «العَطِرةَ» تَحورُ بَينَ الحينِ والحينِ حنيناً إلى وليدِها الّذي يَحرِصُ بو محبوبٍ على ألّا يَصْحَبَ أمَّهُ في غَدَواتِها: إنَّهُ قُدَّ مِن روحِ عِفريتٍ، ما إنْ يَلمحُ أمَّهُ حتّى يَثورَ فرَحاً ويَهجُمَ على ثَديِها يَمتصُّ الحَلَمَ، ويَنطَحُها بإيلامٍ بَينَ الفَينةِ والفَينةِ كأنَّ دَرَّتَها لا تَكفيهِ، فهو يَطلُبُ مِنْها المزيدَ. ولَكنَّ عادلاً لا يُجيبُ! أَتُراهُ **لها**، هَذا اللَّعينُ، عَن حراسةِ البَقَراتِ، واستسلَمَ إلى رُقادِهِ البَليدِ المعهودِ؟ إنَّ البَقَراتِ ستَقضِمُ دواليَ بو سليم، ودَوالي بو سليمٍ خليقةٌ بأنْ تَجُرَّ المَشاكلَ. وعَنتَرٌ الخبيثُ سيَغتَنِمُها فُرصةً ذهبيّةً ليُقَدِّدَ فرسَ «البَيكِ» في غَندرتِها ونَزَواتِها، وهو في ذَلكَ سيَتَّخذُ مِن حقلِ بو محبوبٍ ومِن حقولِ الجيرانِ مَلعباً: يَقفِزُ فوقَ **الجُمّالِ**، ويَطرحُ

لحفُ الجبلِ: أصلُه وسفحُه
لَها: غَفلَ وتَلهّى (مضارعُه يلهو).
الجُمّالُ: مفردُها الجُمّالةُ وهي الحبلُ الغَليظُ.

سياجَ البِطّيخاتِ، ويَهدِمُ ما تَبقّى مِنَ الشّلقةِ الّتي **دَكّتْ** حائطَ الجَلِّ، على أثَرِ ذَلكَ الطّوفانِ الّذي أغرقَ القَريةَ. هَذا كلُّه، وعادلٌ نائمٌ غافلٌ! ولَكِنْ بو محبوبٍ سيُعلِمُه الآنَ كَيفَ يَكونُ النّومُ!

لو لَم يَكُنْ عَنترُ مِن أصحابِ السّوابقِ، لو لَم يَكُنْ **طَويلَ الباعِ** في عالَمِ المَشاكلِ والمَتاعبِ، لما اهتمَّ بو محبوبٍ للأمرِ. ولكنَّ شُهرةَ عَنترَ طَبّقَتْ جِواءَ القَريةِ والجِوارِ، حتّى باتَتِ الشّكاوى تَنهالُ على بو محبوبٍ: عَنترُ لبطَ الولَدَ، عَنترُ قَبَ جَلَّ البصلِ رأساً على عَقِبٍ، عَنترُ هاجمَ حنّا مُستقتِلاً... ولَوِ اقتَصرَ سِجلُّ عَنترَ على هَذه المُخالفاتِ لَما **حَفَلَ** بو محبوبٍ به إطلاقاً... إنْ هَذه إلّا **تُرّهاتٌ** لا يُؤبَهُ لها... ولَكنَّ عَنترَ غالباً ما يَنصرِفُ إلى أعمالٍ أخلاقيّةٍ شائنةٍ أصبحَتْ أسوَأَ أُمثولةٍ

دكّتْ: هَدَمَتْ.

طويلُ الباعِ: الباعُ قدْرُ مدِّ اليدَيْن، وطويلُ الباعِ: مقتدرٌ.

حَفَلَ بِهِ: بالَى واهتمّ.

التُّرّهاتُ: الأباطيلُ والأكاذيبُ والأقاويلُ الّتي لا فائدة منها

يَتلقّاها حميرُ القريةِ السّاذَجةُ... فهو، إذْ يَلمحُ حمارةً تَميسُ، يَنصُبُ أُذنَيْهِ فَوقَ رأسِهِ وكأنَّهُما عمودانِ، ثُمَّ يَبدأُ بالهَمهمَةِ، ثُمّ يُطلِقُه نَهيقاً حادّاً يَتضمَّنُ كلَّ ما يَختبِجُ في صدرِهِ مِن لَواعِجِ الحُبِّ... أمّا إذا لَم يَكُنْ أَحدٌ يُمسِكُ بحَبلِهِ، فإنَّهُ يُسارِعُ إلى غانِيَتِهِ بالقَضمِ والتَّقبيلِ حتّى ولَو أدّى هَذا إلى إجفالِ الحِمارةِ، فيَنقلِبُ الحِملُ أو الشَّخصُ عَن ظَهرِها! ولا يرتدُّ عَنترُ إلّا بعدَ أنْ يَجتمِعَ علَيْهِ العديدُ مِنَ السّواعدِ الّتي توسِعُه لَطماً ورَكلاً وضَرباً مُبرِّحاً... ولَكنَّهُ يَنسحِبُ مُبتهجاً بمآثِرِه.

وحتّى البقرةُ «العَطرةُ» لَم تَسلمْ مِن شَرِّهِ: كانَ مَعلَفُه أمامَ مَعلفِها في المَدِّ، وكانَ يُصابُ أحياناً بِمِثلِ المَسِّ، فيَقضِمُ حَبلَهُ، ويَتوجَّهُ إلى مَعلَفِها مُحاولاً أخذَ ما فيه، فيَكونُ نَصيبُه عِدّةَ طَعَناتٍ بقَرنَيْها الحادَّيْنِ...

تَميسُ: تَتمايَلُ.

اللَّواعِجُ: الحرارَةُ والحُرقةُ.

الغانيةُ: المرأةُ الجميلةُ، واستعارَها الكاتبُ هنا للحمارة.

المدُّ: عند العامّة الإسطبلُ أو الزَّريبةُ أو القبْوُ تحت البيت.

وأرادَ يوماً أنْ يُقلِّدَ العِجلَ الصّغيرَ الرّضيعَ فيَهجُمَ على حَلَماتِها يَستدِرُّ حليبَها، إلّا أنَّهُ كانَ **يَنهشُها** نَهشاً، فتَعالى **الخُوارُ**، ودارَتِ المعركةُ، واستيقظَ بو محبوبٍ وهبَّ إلى المَدِّ؛ ولمّا وقعَتْ عَيناهُ على ما يَدورُ، تَناوَلَ «عصاً» طويلةً وانهالَ بها على عَنترَ: هَذه على رأسِهِ، وهَده على ظَهرِهِ، وهَذه على رِجلَيْهِ، وهَذهِ أيضاً على رأسِه... حتّى إذا ما تكسَّرَتِ العصا، ولَم تَنجُ مِن بَطشِها رُقعةٌ مِن جلدِ عَنترَ، تَراجعَ الحمارُ مُرغَماً، فاقتادَهُ بو محبوبٍ إلى زَريبةِ انفرادٍ صغيرةٍ إلى جانبِ المَدِّ، وقرَّ رأيُه على أنْ يُبقيَهُ هُناكَ أبداً.

ولَكنَّ ما كانَ يَشفعُ بعَنترَ هو أنَّهُ كانَ، ساعةَ العملِ، أَقوى مَن حَمَلَ أكياسَ رملٍ وسَحاحيرَ عِنبٍ وحَمَلاتِ حَطبٍ... كانَ يَحمِلُ ما يَحمِلُ وهو يَركُضُ وكأنَّهُ لا يَحمِلُ شيئاً. وهَذا ما جعلَ بو محبوبٍ يُطلِقُ علَيْهِ لقبَ عَنترَ، ولَولا هَذا لأطلقَ عليْهِ دَكّةً من حِفْتِهِ العتيقِ فأراحَ النّاسَ مِنْه واستراحَ!...

يَنهشُها: يَتناوَلُها بفَمِهِ ليَعضَّها، فيؤثِّرُ فيها ولا يَجرحُها.

الخُوارُ: صَوتُ البقرةِ أوِ الثّورِ.

وفيما بو محبوبٍ يَجولُ فِي العُلِّيّةِ مُرْغِياً، يَبحثُ عَن مَداسِهِ ويَلعَنُ امرأتَهُ الّتي لَم تَبرعْ إلّا في إخفاءِ الأشياءِ المطلوبةِ، بَرزَتْ له جَميلةُ مِن بابِ المطبخِ وشَبكَتْ يدَيْها على صَدرِها بحِدَّةٍ وقالَتْ:

ـ ولِمَ الغضبُ يا إبراهيمُ؟ ولِمَ شتائمُكَ البذيئةُ؟ أفَما كَفى لسانَكَ ما دَحرَجَ مِن أوساخٍ في حياتِهِ؟ ولِمَ هَذه الغَضبةُ على الولدِ؟ ومَن قالَ لكَ إنَّهُ نائمٌ؟ قدْ يكونُ لَم يَسمَعْكَ. قدْ يَكونُ انتقلَ إلى حقلِ بو فارسٍ. ثُمَّ، هَبْ أنَّهُ نائمٌ، فعَلامَ المَلامُ؟ وهَل يُلامُ مَن لَم يَعرِفْ بَطنُه طَعماً لِطّعامِ مُنذُ يومَينِ، إذا ما غَلَبَ علَيْهِ النُّعاسُ؟ حَرامٌ علَيْكَ! هَذا كُفرٌ!

لَم يُجِبْ بو محبوبٍ. إنَّ مَنطِقَ زوجِهِ ليَختلِفُ كلَّ الاختلافِ عَن مَنطِقِهِ. والكَلامُ القاسي لا يُجدي معَها فتيلاً. لِذا أجابَها بعدَ بُرهةٍ، وقَدْ مَلَكَ أعصابَهُ:

مُرْغياً: غاضباً ومُصوِّتاً كالبعير أو الضّبع.

المَداسُ: الحذاءُ.

مَلَك نفسَهُ أو أعصابَهُ: ضبطَها وسيطرَ عليْها وقدرَ على حبسِها.

ـ أتعرِفينَ يا جَميلةُ أنَّكِ تُشبهينَ ذَلكَ الشّاويشَ التُّركيَّ الّذي ضَربَ عَبْدُه تِلكَ القَتلةَ أمسِ الأوّلَ؟ إنَّكِ دائمةُ الاِستعدادِ للمُقاتَلةِ. فبدلاً مِن أنْ تُساعديني على تربيةِ ذَلكَ القِردِ الّذي هو ابنُكِ، تُناصرينَهُ على أبيهِ وكأنَّني **فَدّانُ** فِلاحةٍ، لا زوجٌ، ولا أبٌ. اعقَلي يا امرأةُ! الأتراكُ في الضَّيعةِ يُصادرونَ حميرَها، حتّى باتَ الحمارُ عزيزَ الجانبِ، وأنتِ تَعرفينَ هَذا، إنَّكِ لَسْتِ غَريبةً عَن «أورَشَليمَ». ولَئِن استطَعْنا أنْ نُخفيَ عَنترَ أوّلاً وثانياً، فإنَّ الدّوريّةَ ستَحظى به اليومَ لا مَحالةَ، ما لَم يَنتبِهْ عادلٌ للأمرِ ويَحتَطْ له. وأنّى له أنْ يَفعلَ وهو لَم يسمَعْ نِدائي؟ وبعدَ هَذا تَلومينَني على غَضبي!

فأجابَتْ جَميلةُ وقَدْ أَرخَتْ يدَيْها باستسلامٍ إلى جانبَيْها، وسدَّدتْ إلى عَينَي زوجِها عَينَيْنِ شاكيَتَيْنِ:

ـ والجوعُ يا إبراهيمُ؟ الجوعُ؟

وهُنا انتفضَ بو محبوبٍ كمَنْ لسَعَتْهُ حيّةٌ، ككُلِّ

الفدّانُ: الثّورُ أو الثّوران يُقرنُ بينهما للفلاحة.

رَجلٍ نشيطٍ يَرى إلى واقعِهِ، فإذا به يَطغى على حياتِهِ **بجَبَروتِ** سَوادِهِ، فلا يَقوى له دَفعاً. مَن كانَ يَقولُ إنَّ بو محبوبٍ يَجوعُ؟ مَن كانَ يَقولُ إنَّ بو محبوبٍ يَعيشُ إلى يومٍ يَرى فيه ابنَهُ يَرنو إلى اللُّقمةِ وكأنَّها الغايةُ والنّهايةُ؟ أينَ الكُوارةُ تَكدّسَ فيها القمحُ الحَورانيُّ؟ أينَ المَسامنُ تَكدَّسَ فيها الدُّهنُ، دُهنُ الخِرافِ المَعلوفةِ الّتي أكلَتْ مِن يدَيْ جَميلةَ ومِن لياليها؟ أينَ **دَكاكيشُ** التّينِ المَعليّ، والزّبيبِ، والجَورِ، تُنفَقُ في ليالي الشّتاءِ بَينَ **السُّمّارِ**، لا حسابَ، ولا ندَمَ؟ أَجَلْ، إنَّ واقعاً كهَذا الّذي جَثَمَ عليْهِ لكَفيلٌ بأنْ يَجعلَ أعماقَهُ تَنتفِضُ. إنّهُ يَثورُ لكَرامةٍ هدَرَها التُّركيُّ الدَّخيلُ، يَثورُ لنشاطٍ يُنْحَرُ كما تُنْحَرُ الأرواحُ في كُلِّ دُنيا مِن دُنى العُثمانيّينَ.

وبعدَ بُرهةٍ التفتَ بو محبوبٍ إلى زوجِهِ وقالَ لها بحِدّةٍ وقَلبُه يَتمزَّقُ:

الجَبَروتُ أو الجَبْروتُ: صيغةُ مبالغةٍ بمعنى القُدرةِ والسُّلطةِ والعظمة.
الدّكاكيشُ: مفردُها الدّكّوشةُ وهي خابيةٌ صغيرةٌ (عامّيّة)
السُّمّارُ: الساهرونَ المتحدّثونَ ليلاً.

ـ الجوعُ؟ ومَن لَم يَجُعْ؟ ألَم تَجوعي أنتِ؟ ألَم أَجُعْ أنا؟ ألَم يَمُتْ جِرحي بِالأمسِ مِنَ الجوعِ، فلَم يَقوَ أَحدٌ مِن شُبّانِنا على احتفارِ قبرٍ له، لشدّةِ الهُزالِ؟ كلُّنا جائعٌ، كلُّ شيءٍ جائعٌ. وهلِ الجوعُ عذرٌ يُبرِّرُ مصادَرةَ عَنترَ!؟

ـ يا بو محبوبٍ، الدّنيا ثَقيلةٌ، والأيّـامُ صِعابٌ، والأعصابُ أمسَتْ فقاقيعَ صابونٍ، أقَلُّ خاطرةٍ تُعكِّرُها. حتّى اللّاشيءَ يُعكِّرُها. اعذِرْ تَسرُّعي يا إبراهيمُ. إنَّما أَلعنُ هَذه الأيّامَ السّودَ الّتي حملَتْ إلَيْنا هَذا الشّقاءَ، أَلعنُ هؤلاءِ التُّركَ الأنجاسَ الّذينَ انقَضّوا على خَيراتِنا جَراداً ذَليلاً خبيثاً. أمسِ صادَروا آخِرَ مَشمَنَةٍ عندَنا. إنّهُم نَكَشوها مِنَ التّبّانِ، فلَشَدَّ ما هو قَويٌّ ريحُهُم، أولَئكَ الكلابِ! اللهُ يَمحَقُهُم! حتّى البحرُ أَقفَلوهُ! آهِ لو بَقيَ مفتوحاً، إذاً لأَسعفَنا محبوبٌ بأموالِ «النّيُرْك»!

وشَهَقَتْ جَميلةُ بالبكاءِ. وفي تِلكَ اللّحظةِ رَجَّتْ في الخارجِ أقدامٌ ثقيلةٌ، فهَبَّ بو محبوبٍ مَذعوراً، وجفَّفَتْ جَميلةُ دموعَها بسُرعةٍ، ووقفَ الاثنانِ وراءَ

البابِ وكأنَّهُما قدْ أدركا بالحَدْسِ أنَّ البابَ سيُقرَعُ، وأنَّهُ سيَكونُ علَيْهِما أنْ يَفتحا. وإذا بضَرَباتٍ **تهوي** على البابِ بقُوّةٍ، وصوتٍ كأنَّهُ النُّباحُ يَصيحُ بصاحبِ الدّارِ:

- افتَحْ، ولَنْ!

وأمسكَ بو محبوبٍ بالمِزلاجِ يُزيحُه، فإذا هو أمامَ أربعةٍ منَ الجنودِ الأتراكِ، بثيابِهِمِ الوَسخةِ الخَرِبةِ، وجَزْماتِهِمِ الباهتةِ المُتشقِّقةِ، ووجوهِهِمِ الّتي يَنعكِسُ علَيْها بمرارةٍ استرحامُ البطنِ الفارغِ، يتقدَّمُهُم أومْباشي ارتفعَ بَطنُه حتّى كادَ يَحجُبُ وَجهَهُ عَنِ النّاسِ، وتَسلَّقَ شارباهُ **أرنبةَ أنفِهِ** وتَصافحا فوقَها.

- أينَ الحمارُ؟ صاحَ الأومْباشي.

- أيُّ حمارٍ، أفَنْدِمْ؟

- أيُّ حمارٍ؟ كَذْبٌ! حمارُكَ!

وأمسكَ بسُترةِ بو محبوبٍ وراحَ يَهزُّه كأنَّما يَفرِطُ غُصنَ زيتونٍ.

تهوي تَسقُطُ.

أرنبةُ الأنف طرفُه.



ـ واللهِ يا أَفَنْدِمْ... ماتَ... مِن زمانٍ. الحمارُ ماتَ، واللهِ!...

وفيما كانَتْ كِرشُ الأومْباشي آخذةً بِخِناقِ بطنِ بو محبوبٍ الخاوي، تقدَّمَ جنديٌّ مُسرعاً وكلَّمَ الأومْباشي، فانسحَبَ هَذا معَ جنودِهِ وهو يَرفعُ قَبضَتَهُ في وَجه بو محبوبٍ **مُتَوعِّداً**. أمّا بو محبوبٍ وحَميلةُ فقَدِ انسحَبا إلى البيتِ مَذعورَيْنِ، في حينِ تَوجَّهَ الجنودُ في الطَّريقِ المُتعرِّجةِ إلى حَيثُ تَقومُ الحقولُ...

كلّا، لَم يَكُنْ عادلٌ نائماً حينَ ناداهُ والدُه. بَل إنَّه لَم يَعرِفْ في حياتِهِ لحظةً أَعملَ فيها انتباهَهُ ويَقْظَتَهُ كتِلكَ الّتي كانَ والدُه يَتَّهِمُه فيها **بالخُمولِ** والعَبَثِ. أَجَلْ، كانَ يُسدِّدُ نَظرَهُ إلى الجهاتِ كُلِّها دُفعةً واحدةً، يُحدِّقُ إلى السّماءِ، إلى الحقولِ، إلى البَقَراتِ، إلى الحَصى، وقَدِ استدارَتْ حَدَقَتا عَينَيْهِ حتّى اتَّخذَتا ضِعْفَ حَجمِهِما المعتادِ؛ وأَرهَفَ السَّمْعَ، فإذا هو

مُتوعِّداً: مُهدِّداً.

الخُمولُ: البَلادةُ والكسَلُ.

يَستنطِقُ حَصاةً دَحرجَها جِـرْذَوْنٌ، أو زَعقةً طائشةً أطلقَها بو زُرَيْقٍ أرعنُ، أو حفيفاً في «اللَّزقةِ» سبَّبَتْهُ حيّةٌ مُجفِلَةٌ، أو سكوتاً مُفاجِئاً أَحدثَهُ انقطاعُ زيزِ الحَصادِ عَنِ الشَّكوى. كانَ كلُّ خَيالٍ، وكلُّ سكونٍ، وكلُّ همسٍ، يُصيبُ مِن بَصَرِ عادلٍ، وسَمْعِهِ، وبَصيرتِهِ، التفاتاً غريباً، حتّى لكأنَّهُ يَرى الأتراكَ في كلِّ مكانٍ، في كلِّ شيءٍ مّما يُحيطُ به. لقَدْ لمحَ مُنذُ بُرهةٍ تُركيّاً على طريقِ معملِ الحريرِ، فَوقُ، ولا شَكَّ أنَّ هَذا التُّركيَّ قدْ لَمَحَهُ: فقَدِ اقتربَ مِنَ الشُّوارِ وحَرَّكَ يدَهُ بطريقةٍ لَم يَفهَمْ عادلٌ القصدَ بها، ثُمَّ عادَ عَن حركتِهِ وكأنَّهُ نَدِمَ على ما نَدرَ مِنه، وحَثَّ الخُطى إلى القَريةِ وكأنَّهُ وراءَ أمرٍ مُهِمٍّ. ولَم يَخْفَ على عادلٍ أنَّ عَنترَ في خطرٍ. لِذا رَبطَ البَقَراتِ إلى جِذعِ توتةٍ، وسَعى إلى عَنترَ يَبحَثُ عَنْه، فإذا به يَسمعُ جَلبةً وكأنَّ عِراكاً قدِ احتدَمَ بَينَ عِشرينَ شَخصاً في التُّرابِ. ولمّا دَنا مِن مَصدرِ الصَّوتِ شاهدَ عَنترَ مُمدَّداً على الأرضِ نَشوانَ، ثُمَّ

النُّشوانُ. النّشكرانُ، والمقصودُ هُنا أنَّهُ مرتاحٌ فرِحٌ.

شاهدَهُ، **خَلَلَ الغُبارِ** المعقودِ فوقَهُ، يَستلقي على ظهرِهِ، ويَرفعُ قوائمَهُ إلى أعلى، ثُمَّ يَنتقِلُ على جنبِهِ الأيمنِ، ليَستريحَ بعدَ ذلكَ قليلاً، ثُمَّ يعودُ إلى سيرتِهِ... وأسرعَ عادلٌ إليْهِ فألجَمَهُ، ورمى **الجِلالَ** على ظَهرِهِ سَريعاً، ثُمَّ جَرَّهُ بالحَبلِ جَرّاً وهو لا ينقادُ إلّا بفعلِ **الشّكيمةِ** الّتي تَشُدُّ على فكَّيْهِ. وأخيراً طَرأَ على رأسِ عَنترَ طارئٌ، فإذا به يَنقادُ لعادلٍ عَن طيبةِ خاطرٍ، ثُمَّ يُسرِعُ ويَركُضُ، حتّى ابتَعدا عَنِ المكانِ الأوّلِ، ووَصلا إلى وادٍ تُحيطُ بهِ مِن جانبَيْهِ أشجارُ سِندِيانٍ مُتَراصّةٌ، فرأى عادلٌ أنْ يَختبِئا هُناكَ رَيْثَما يَنجلي المَوقِفُ.

وما هِيَ إلّا دقائقُ حتّى سَمِعَ عادلٌ أقداماً ثقيلةً تُدحرِجُ الحَصى على الطّريقِ المُجاوِرِ. ثُمّ خَفَتَ ذلكَ كلُّهُ تَدريجيّاً وسَكتَ، بينَما انطلقَتْ في الجِوارِ

خَلَلَ الغُبارِ: بَينَ الغُبارِ.

جِلالُ الحمارِ: ما يُلبَسُ به الحمارُ ليُصانَ ظهرُه عند ركوبه (عاميّةٌ فصيحتُها الجُلُّ).

الشّكيمةُ: الحديدَةُ المعترِضَةُ في فَمِ الفَرسِ أو الحمارِ.

كَلِماتٌ غريبةٌ، ثُمَّ عادَتِ الجَلَبَةُ تقترِبُ أكثرَ فأكثرَ. وكانَ قَلبُ عادلٍ يَثِبُ إلى حَلْقِهِ فيُطبِقُ عينَيْهِ بغُصّةٍ كأنَّها شِدْقا كمّاشةٍ؛ وازدادَ إطباقُ الكمّاشةِ إحكاماً عندَما لَمحَ جُنديّاً تُركيّاً يَقترِبُ مِنْه على مَهلٍ مِن غَيرِ أنْ يَراهُ، مُمسِكاً ببُندقيَّتِهِ: كانَ يَنظرُ إلى المخبأِ، بَل كانَ يَنظرُ إلى عَنترَ، وإلى عادلٍ، ولكِنْ لَم يَبدُ أنَّهُ رأى شيئاً. وما إنْ أصبحَ الجُنديُّ على بِضعةِ أمتارٍ مِنَ المختبِئَيْنِ حتّى عنَّتْ على بالِ عَنترَ فِكرةٌ هِي مِن أسخَفِ ما ابتدعَتْ عَبقريّةُ حِمارٍ: رفعَ شِدقَهُ إلى عَلُ، وهزَّ **مِشفَرَيْهِ** مُكشِّراً عَن أنيابِهِ، ثُمَّ أطلقَ في الجوِّ صَوتاً كانَ مِن **أنكرِ** ما عَرفَتِ الحميرُ مِن مُنكَرِ الأصواتِ! فسُمِّرَ التُّركيُّ وقَدْ أخذَتْهُ **الرِّعدَةُ** لِقوّةِ الصّوتِ المفاجئِ، ثُمَّ انتبَهَ لِواقعِهِ فدَعا زملاءَهُ، وأسرعَ إلى عَنترَ وعادلٍ. وعَبَثاً حاولَ عادلٌ أنْ يَجُرَّ عَنترَ، فقَدْ وقفَ هَذا مُكمِّلاً أُنشودتَهُ

المِشفَرُ: الشّفةُ، وتُستعملُ للحيوانِ.
أنكَرُ: أبشعُ، أقبحُ.
الرِّعدَةُ: الرَّجفَةُ والاضطرابُ مِن الفزَعِ.



حتّى اقتربَ مِنْه الجنودُ السّتّةُ وحاولَ أحدُهُم أنْ يُمسِكَ بزمامِهِ. وفي هَذه الأثناءِ كانَ عادلٌ قدْ تَسلَّلَ عَبْرَ **الوَزّالِ والجَرْبانِ** إلى الحقولِ لا يَلوي على شيءٍ. وما إنْ أَمسَكَ الجُنديُّ بزِمامِ عَنترَ حتّى هجمَ هَذا الأخيرُ عليْهِ ووجّهَ إلى أُذنِهِ قَضمةً مُحكَمةً انتزعَتْ مِن بطنِ التُّركيِّ عَريفاً مُرعِباً، كما انتزعَتْ مِن رأسِهِ أُذنَهُ، فحَملَها عَنترُ ووَلّى هارباً وهو ما زالَ يُرسِلُ نَهيقَهُ، بَينَما تَحلّقَ الجُنودُ حَولَ زميلِهِم وقَدْ فَقَدَ وَعْيَهُ...

لمّا لَحقَ عَنترُ بعادلٍ كانَ هَذا قدْ قَطعَ الحقولَ مُتوَجِّهاً إلى أَقربِ بيتٍ في الضّيعةِ. وما إنْ أصبحَ البيتُ على مَرمى الصّوتِ حتّى صاحَ عادلٌ لاهِثاً تائِهَ العقلِ:

ـ دَخلْكُم... يا عَمّي تقلا!... يا خالتي طَنّوس... دَخلْكُم!...

الوزّالُ: نباتٌ تُفتَلُ قُضبانُه حِبالاً (عامّيّة).

الجَرْبانُ: نباتٌ شائكٌ (عامّيّة).

قصة

البَرِبـارةُ

في تِلكَ اللَّيلةِ مِن لَيالي الحربِ العالميّةِ الثّانيةِ كانَ الشّارِعُ يُغمِضُ عَيناً ويَفتحُ أُخرى. الحوانيتُ مُشْرِعةٌ أبوابَها، ولَكِنْ غَلبَ على ما فيها ومَن فيها صَمتُ الكَهفِ وأَهلِهِ. البيوتُ تُبَصْبِصُ إلى الطّريقِ بِنظّاراتِها الزُّرْقِ، تُريد أنْ تَرى، وتُحاذِرُ أنْ تُرى. السّيّاراتُ تَتلمّسُ طريقَها، لا يَقي الواحدةَ مِنْها مُصادَمةَ أُختِها، إلّا بياضٌ طُلِيَتْ به مؤخَّرتُها وجَنْباها، تَنعكِسُ عليْهِ نظْراتُ القناديلِ الرّمداءِ. مِنَ النّاسِ مَن يَسابونَ بسُرعةٍ وكأنَّهُم أشباحُ الجِنِّ على مَوعِدٍ مع أمرٍ جَلَلٍ،

تُبَصْبِصُ: تفتحُ عيونَها وتنظرُ.

جلَلٍ: عظيمٍ، خطيرٍ.

ومِنْهُم مَن يَتقدَّمُ بخُطىً واسعةٍ ثقيلةٍ تُجلجِلُ أحذِيَتُهُم وَسْطَ الظُّلمة ليُظهروا لِلخَوفِ أنَّهُم غَيرُ مَن يَعتقِدُ. بَينَ الحينِ والحينِ صَفّارةُ حارسٍ يَتبعُها صَوتٌ: «أَطفِئْ نورَكَ...»، ثُمّ نورٌ يَختفي ويَحِلُّ محلَّهُ نورٌ **مُتَحشرِجٌ**.

السّماءُ تُسهِمُ في التّمويهِ، إذْ تَعترِضُ الغيومُ ما بَينَ الطّائراتِ والأرضِ مُتَراصّةً، حتّى ليَدخلُ بَعضُها ببَعضٍ ويَشُدُّ، قَريبةً حتّى لتَغشاكَ مِنْها الرّعدةُ إذْ تَنظرُ إلَيْها، فكأنَّهَا كابوسُ مَقبرةٍ، عابسةً مُعَربدةً حتّى لَكأنَّ فَوقَكَ بحراً **جائشَ الغَوارِبِ**، يَختلِفُ لَونُه بَينَ إزبادةٍ بيضاءَ وتَكشيرةٍ دَكناءَ. والرّيحُ محنونةٌ بألفِ لسانٍ وألفِ يدٍ، تُولوِلُ وتَهجُمُ، فإذا الجمادُ حيٌّ مذعورٌ: قِرميدةٌ تَطيرُ، وبابٌ يَتَملمَلُ، وتَنَكةٌ تَنتحِرُ مِن على شُرفةِ مَطبخٍ... ثُمّ تَهدأُ المجنونةُ المُتوحّشةُ، وتَفتحُ عَينَيْها كبيرتَيْنِ،

مُتحشرِجٌ: مُشرِفٌ على الموت، يلفظُ أنفاسهُ الأخيرة، والمقصودُ هُنا ضعيفٌ يكادُ يَنطفئُ.

جائشَ الغَوارِب: هائجاً، مضطرباً.

مُحْمرَّتَيْنِ، وتُحدِّقُ إِلَيْكَ مِن كلِّ زاويةٍ، ويَسترخي لِسانُها لاهثاً... يبدو أنَّ العناصرَ، كالبَشرِ، في حربٍ: هَذه الغيومُ المُحتشِدةُ، الزّاحفةُ، وهَده الرّيحُ العاصفةُ، اللّاهثةُ، تُنذِرُ بالتَّجمُّعِ والاِستعدادِ، والعاصفةُ لا تأتي، فكأنَّما العدوُّ في مُداوَرةِ عَدوِّهِ يتربَّصُ ثُغْرةَ الضَّعفِ ليَضرِبَ.

وَقفَ وأُختُهُ مَصعوقَيْنِ في مَدخلِ إحدى البِناياتِ. كانَ يَحُثُّها على أنْ تَصعدَ السُّلَّمَ قَبْلَهُ لأنَّها أَصغرُ مِنْه، وكانَتْ هي تَحُثُّه على صُعودِهِ قبْلَها لأَنَّهُ أكبرُ مِنْها. وكانَ الواحدُ مِنْهما، كُلَّما نَظرَ إلى السُّلَّمِ، ورَأى تِلكَ الظُّلمةَ الرّابضةَ فَوقَهُ، يَندَسُّ في الآخرِ ويُشيحُ بنَظرِهِ إلى الشّارعِ. ويَزيدُ في إصرارِهما أَنَّهُما هُما اللّذانِ أَلَحّا على أمِّهِما. مُنذُ أسبوعٍ وهُما يُطارِدانِها نَقّاً وعَنّاً، طالبَيْنِ إِلَيْها أنْ تَسمحَ لهُما بأنْ يَدورا في ليلةِ «البَربارةِ» كغَيرِهما مِن أطفالِ الحَوْشِ. ولَقدْ رَفضَتْ أوّلَ الأمرِ، لأسبابٍ، مِنْها أنَّ شِراءَ الأَقنعةِ والقَبابيعِ والدِّربكّةِ لا تَتحمّلُه ميزانيّةُ الكوخِ، وأنَّ إقناعَ زوجِها

دونَهُ المَسْلَكُ الوَعِرُ. إنَّها تَعرفُ مبدأَ زوجِها، وهِي تُؤمِنُ، ضِمناً، بأنَّهُ المَبدأُ الصّوابُ، ولَكنَّها حاولَتْ غَيرَ مرّةٍ أنْ تُقنِعَهُ **بعُقمِهِ** استناداً إلى أنَّ واقعَ الحياةِ شيءٌ، وما نَعتقِدُ أنَّهُ صوابٌ و**مِثاليّةٌ** وكرامةٌ شيءٌ آخَرُ. وكانَ هو يُصِرُّ دائماً على أنْ يُردِّدَ:

ـ نحنُ الفُقراءَ مُتّهمونَ. إذا أتى الغنيُّ **الكبائرَ** ابتسمَ النّاسُ وقالوا: انظروا، ما أَحسنَهُ! أمّا الفقيرُ فإنَّ اللّعنةَ مُتشبِّثةٌ به مَهْما يَفعلْ، وإذا حاولَ أنْ يَكسِبَ قِرشاً إضافيّاً فإنَّهُ جَشِعٌ، طمّاعٌ، لا يَشبعُ.

ولمّا **وَطَّنَتِ العَزمَ** على أنْ تُفاتِحَهُ بأمرِ البَربارةِ صدَمَها **التّعنُّتُ** المعهودُ المنتظَرُ، إلّا أنَّها ما لَبِثَتْ أنْ رَوَّضتْهُ بأنْ تَناولَتِ الوتَرَ الحَسّاسَ في نفسِهِ ببِضعِ كَلماتٍ:

العُقمُ: الحالةُ الّتي لا خيرَ فيها ولا نفعَ منها.
المِثاليّةُ: الحالةُ والقُدوةُ الفُضلى الّتي يُتمثَّلُ بها.
الكبائرُ: مفردُها الكبيرةُ وهي الخطيئةُ الكُبرى والمُميتةُ.
وطَّنَ العزمَ: صمَّمَ وقرَّرَ.
التّعنُّتُ: العِنادُ والتّشبُّثُ بالرّأي.

ـ ... أَجَلْ، ولِمَ لا؟ ليسَ في الأمرِ ما **يُضيرُ**. أنا أَعرِفُ أنَّ لكَ كبرياءَكَ الّذي يَزدادُ شمَماً كُلَّما ازدَدْنا احتياجاً. وبَعدُ، أَنأكُلُ كبرياءَنا يومَ لا نَجدُ ما نَأكُلُه؟ وما ضَرَّ لو أنَّ الأولادَ داروا في ليلةِ البَربارةِ على البيوتِ؟ إذنْ لأَصَبْنا هدفَيْنِ: نَجبُرُ بخاطرِهِما ولَوْ مرّةً، ونَجمعُ قِرشَيْنِ. النّاسُ لا يلومونَنا إذا رَأَوا ولدَيْنا يَدورانِ، ولكنَّهُم **يَشمَتونَ** بنا إذا جُعْنا. دَعْهُما يَعيشا ولَوْ لَحظاتٍ، ودَعْنا نَعِشْ يومَيْنِ آخرَيْنِ ممّا يَجمعانِ.

ولانَ، فكأنَّ **البِطالةَ** قدْ قصقصَتْ جَناحَيْهِ فجعلَتْ مَبدأَهُ سَهلَ القِيادِ.

وكانَ على الأمِّ أنْ تُعْنى بوَضعِ مراسيمِ الحفلةِ، فاشترَتْ لولدَيْها ما تَيَسَّرَ لها مِن أسبابِ التَّقنيعِ، فإذا لِكُلِّ ولدٍ قناعٌ يَسترُ العَينَيْنِ وقِسماً مِنَ الأنفِ، وقَبّوعٌ مِنَ الطِّرازِ العتيقِ، ولِلصَّبيِّ وحدَهُ دِربكَّةٌ. ولمّا

يُضيرُ: يُضرُّ.
شمت بفلانٍ: فرح بمُصيبته.
البطالةُ: التعطُّلُ من العمَلِ.

أرادَتْ أنْ تُلقِّنَهُما بَعضَ ما يَحبُ أنْ يُقالَ في المناسبةِ بادَراها:

ـ لا ماما، نَعرِفُ، نَعرِفُ.

ـ تَعرِفانِ؟ ماذا تَعرفانِ؟

ـ نَعرِفُ كلَّ شيءٍ. كُنّا نَسمعُ الّذينَ يَدورونَ، ورامزٌ عنّما أيضاً. إذا فَتَحوا لنا نَبدأُ حالاً: «بِسّيّي بِربارَه والقَمحْ بالمغارَه،

يا مْعَلّمْتي حِلّي الكيسْ اللهْ يِبْعَتْ لِكْ عَريسْ بجاهْ العَدرا والمسيحْ».

وإذا ماطَلوا نَستحِثُّهُم بقَولِنا:

«أرجيلِهْ فَوقْ أَرجيلِهْ صاحِبْةِ الْبيتْ زَنجيلِهْ».

وإذا أعطَوْنا نَقولُ:

«لَيمونِه فَوقْ لَيمونِه صاحِبْةِ الْبيتْ يا عيوني».

أمّا إذا لَم يَفتحوا، أو إذا طَرَدونا، فإنّنا نَقولُ هٰذا:

«بْلاطَه فَوقْ بْلاطَه صاحِبْةِ البيتْ خِرّاطَهْ»، ونَهرُبُ.

نستحِثُّهُم: نحضُّهم ونُنشِّطُهم.

زنجيلة أو زنكيلة: غبيّة (عاميّة).

ضَحكَتِ الأمُ، إلّا أنّها تَمالكَتْ فَحأةً، لأنَّ في الضَّحِكِ تَشجيعاً لولدَيْها على أنْ يَقرِنا خِطَّتَهُما بالعملِ. كانَتْ تُريدُهما شريفَيْنِ، عاقِلَيْنِ، فالفَقرُ شيءٌ، كما كانَ زوجُها يَقولُ، والسَّفاهةُ شيءٌ آخرُ. وبَرّاً مِنْها بهَذا المبدأ وَعظَتْ ولدَيْها قائلةً:

ـ لا يا ماما، هَذا عَيبٌ. إذا لَم يَفتحوا، أو إذا لَم يُعطوكُما، فما عليْكُما إلّا الانسحابُ بأدَبٍ.

ـ لَيش ماما؟

ـ لأنَّ الربَّ يَخنُقُنا.

وقدْ أَثَّرَ هَذا المَنطِقُ في الولدَيْنِ لأنَّهُما، بَعدُ، مِن حزبِ اللهِ. فنَظرَ الفتى إلى أُختِهِ، ونَظرَتْ هي إلَيْهِ، ووَعدا أُمَّهُما:

ـ طَيِّبْ ماما. وحْياةْ الله.

... وهَكذا وَصلا إلى مَدخلِ هَذه البنايةِ الخبيثةِ. اللّيلُ تَشتدُّ وطأتُه بسُرعةٍ، وهُما بَينَ تَداعٍ للصّعودِ،

السّفاهةُ رداءةُ الخُلُق

بَرّاً: وفاءً.

التّداعي: تبادُلُ الدَّعوةِ.

ونَظرٍ إلى الشّارعِ. لقَدْ كانَ الشّارعُ، على **تقطيبِهِ**، **يَحفِلُ** بما يَستهويهِما؛ فبَينَ الحينِ والحينِ تَمرُّ جماعاتٌ مِنَ المُحتفِينَ «بالبَربارةِ»، لكلٍّ رِيُّها، وتقليدُها، وأساليبُها: فمِن جماعةٍ يَرتدونَ العَباءاتِ، ويُرخونَ اللِّحى المُستعارةَ، ويُنشِدونَ الأناشيدَ البَدويّةَ؛ إلى جماعةٍ يَركبونَ الدّرّاجاتِ البُخاريّةَ ويُصفّرونَ، لابسينَ بِذْلاتِ البوليسِ الكَنَديِّ الحمراءَ؛ إلى جماعةٍ حَفَلَتْ بكُلِّ الأزياءِ، مِن «رورو» إلى «أبي حشيشةٍ»، وبكُلِّ الآلاتِ، مِنَ العودِ إلى الكَمنجةِ مُروراً بالدِّربكّةِ والأكّورديونِ؛ إلى جماعةٍ مِنَ الفقراءِ كانَتْ ثيابُهُمُ العاديّةُ تقومُ مَقامَ الثّيابِ التّنكّريّةِ على أَتمِّ وجهٍ! وكانَ الولدانِ يَريانِ إلى هَذا كُلِّهِ مُنذَهِلَيْنِ، والوقتُ يَطوي سريعاً. ثُمَّ، وكأنَّهُما تَذكّرا فجأةً مَهمّتَهُما، وخافا إنْ هُما عادا **صِفرَ الأيدي** أنْ يُحرَما مِن امتيازِهِما في

التّقطيبُ: العُبوسُ والكُلوحُ، والمقصودُ هُنا العتمةُ.
يحفِلُ: يمتلئُ، يجتمعُ فيه.
صِفرُ الأيدي: فارِغي الأيدي.

المُستقبلِ، تَشجَّعا، فرَسَما إشارةَ الصّليبِ، وتَمتَما «الأبانا»، وتأبَّطَ كلٌّ مِنْهما ذِراعَ الآخَرِ، وانطلَقا في السَّمِ لا يَلويانِ على شيءٍ خوفاً مِن هَذه الظُّلمةِ الّتي حاصرَتْهُما مِنَ الخَلفِ. ولمّا وَصلا أمامَ البابِ طَرقاهُ بقُوّةٍ وهُما يَنظُرانِ إلى الوراءِ. شَعرا بأنَّ انتظارَهُما قدْ طالَ، فألَحّا بالطَّرقِ، وراحا يُردِّدانِ بعضَ المقطوعاتِ مِن غَيرِ ترتيبٍ، والصّبيُّ يَضرِبُ دِربكّتَهُ ضَرَباتٍ مُتقطِّعةً، تَشتدُّ عَصبيّتُها حيناً وتُحتضَرُ حيناً. وما لَبِثا أنْ سَمِعا كلاماً هوَ أشبَهُ بالنّقاشِ، ثُمّ فُتحَ البابُ ليَقِفا وَجهاً لوَجهٍ هُما وسيّدةُ البيتِ. صَمَتا، ولَم يَتحرَّكا، وسَمّرا أنظارَهُما إلى وَجهِ السّيّدةِ. ويَبدو أنَّ ثَمّةَ تَرحيباً في وجهِها شَعرا به، فدَخلا، وبَدَأا بتَنفيذِ البروتوكولِ:

«بسّيّي بربارةْ والقمحْ بالمغارةْ...»

إلاّ أنّهُما لَم يُتابِعا. لقَدْ عَلِقَتْ أبصارُهُما برَجلٍ يَلتفعُ بعَباءةٍ وقَدِ اتَّخذَ مَجلِسَهُ ناحيةً. لَم يَكُنْ وَجهُه لِيوحِيَ

لا يَلويانِ: لا يَقفانِ ولا يَنتظرانِ.



بغَيرِ **التّطيُّرِ والرّيبةِ**، وكانَتْ نَظَراتُه مُسدَّدةً إلى الولَدَيْنِ وكأنَّها تَرتجفُ حَنَقاً وتَأْخذُ بخِناقَيْهِما وتَطرحُهُما في الشّارعِ. وبَدا شيءٌ مِنَ الانحلالِ في **أوصالِهِما**، فلا الأناملُ تَنطِقُ على الدّربكّةِ، ولا اللّحنُ يَنطلِقُ مِنَ الفمِ، بَل هَكذا: وِقفةٌ غَبيّةٌ بَلهاءُ. كانَ الصّبيُّ يَسعى إلى أنْ يَقولَ شيئاً، ولَكنَّهُ نَسيَ كيفَ يَبدأُ، وبماذا يَبدأُ، وأَنظارُه دَوماً إلى وَجهِ الرَّجلِ تُنسيهِ ما يَجبُ أنْ يَتفتَّقَ به لِسانُه. وفجأةً انطلَقَ مِن جَوفِهِ صوتٌ قويٌّ خائفٌ ما لَبِثَ أنْ واكبَهُ صوتٌ قويٌّ خائفٌ آخرُ انطلَقَ مِن جَوفِ الفتاةِ:

«بلاطه فَوقْ بلاطه صاحِبْةِ البيتْ خرّاطه!».

وكأنَّ الرَّجلَ كانَ يَنتظِرُ عُذراً لِلوُثوبِ بِهِما، فما إنْ سَمعَ ما قالا حتّى هبَّ مِن مكانِهِ عولاً مُفترِساً زاعِقاً، فارتدَّ الولدانِ إلى البابِ صارخَيْنِ، وانطلَقا يَنهبانِ

التّطيُّرُ: التّشاؤمُ.

الرّيبةُ: الشّكُّ، قَلَقُ النّفسِ واضطرابُها.

الأوصالُ: الأعضاءُ.

دَرَجاتِ السُّلَّمِ نَهباً إلى الشّارِعِ، فلَمْ يَشعُرا **بمَيازيبِ** الماءِ المُتصبِّبةِ مِنَ السّماءِ على أثَرِ انفجارِ العاصفةِ، بَل ظَلّا يَركُضانِ، ويَركُضانِ، وهُما يَشهَقانِ بالبُكاءِ شَهَقاتٍ مُتقطِّعةً. وأثناءَ انطلاقِهِما أمامَ مَدخلِ إحدى البناياتِ شَعرَ الصّبيُّ بأنَّ رأسَهُ قدْ خفَّ، وبأنَّ الماءَ يَعبَثُ بجُمجُمتِهِ حتّى أعماقِها، فتَمَسَّ رأسَهُ فإذا القَبّوعُ قدْ طارَ! ومعَ ما هو علَيْهِ مِن هَلَعٍ فقَدْ أوقفَ أختَهُ، وعادا خُطُواتٍ، فرأى جماعةً مِنَ الشُّبّانِ والشّابّاتِ، وقَدِ اتَّخَذوا مَدخلَ البنايةِ مَلجأً مِنَ المطرِ، يَضحكونَ، وفي يدِ أحدِهِم قَبّوعُه. فتَدفَّقَتْ في عروقِ الصّبيِّ دماءٌ حارّةٌ، وشَعرَ بأنَّ **الرُّزءَ** يَقترِنُ **بالمَهانةِ**، وبأنَّ العَودةَ بلا قَبّوعٍ مَذلّةٌ دونَها بَذلُ النَّفسِ، فصاحَ بالشّابِّ:

ـ أعطِني قَبّوعي!

وما كانَ هذا إلّا لِيَزيدَ الجماعةَ إغراقاً في الضَّحِكِ.

المَيازيبُ: السُّيولُ والأنهارُ.

الرُّزءُ: المُصيبةُ العظيمةُ.

المَهانةُ: المذلّةُ.

ـ أَقولُ لكَ أَعطِني قَبّوعي!

ولمّا أدركَ أنَّ كلامَهُ لا يَلقى أُذناً، أَمسَكَ دِربكّتَهُ بكِلْتا يدَيْهِ، ورفعَها، وأَهوى بها على جبينِ الشّابِّ، فانطلقَتْ في الحالِ صَيحتانِ: واحدةٌ مِن قلبِ الشّابِّ، وأُخرى مِن فَخّارِ الدِّربكّةِ المُتناثِرِ. ولَمّا رأى الجماعةَ يُسارعونَ إلى زميلِهِم الجريحِ، جَرَّ أختَهُ بيَدِها وانطَلقا، لا يَعرِفانِ اتّجاهاً، يَبكيانِ، وهُما يَتلفّتانِ إلى وراءَ.

قصة

ابنُ العامِلِ

عادَ سميرٌ عصرَ ذَلكَ اليومِ مَهموماً على غَيرِ عادةٍ، مُطرِقاً كشَيخٍ نَهشَتْهُ مَصائبُ الحياةِ وأَناخَتْ على كَتِفَيهِ أَحمالاً تَخِفُّ دونَها الجبالُ؛ صَبيٌّ في السّادسةِ مِن عمرِهِ، رقيقُ العودِ، ذكيُّ النَّظَراتِ، عريضُ الجبينِ، حُشِرَ في ثيابٍ أَثَريّةٍ مِن بقايا سَراويلَ كانَ لجَدِّهِ، أَمعَنَتِ الإبرةُ في تَعديبِها وتَشويهِها، فانتَزَعَتْ مِنْها شبابَها وأَعملَتْ في جَنباتِها تَرقيعاً لا يَعرفُ الشَّفَقَةَ ولا النّظامَ. أمّا جَواربُه فقَدْ أَنكرَها صفاءُ المَحتِدِ لتَمازُجِ

أناخت: أسقطت، أنزلت.

السّراويلُ: لباسٌ يَستُرُ أَسفَلَ الجِسمِ، جمعُها سَراويلاتٌ.

أمعنت: بالغت.

المحتدُ: الأصْلُ.

العناصرِ المُختلفةِ فيها، إذْ قَدّمَتِ القِسمَ الأسفلَ مِنْها مُخلَّفاتُ جَوارِبِ أبيهِ، تَبرّعَتْ جَوارِبُ أمِّهِ بالقسمِ الأعلى، والْتَفتْ بَينَ هذَيْنِ القِسمَيْنِ رُقعٌ مِن مُختلِفِ الأعمارِ والألوانِ والأجناسِ، وخُيوطٌ **تمخُرُ العُبابَ** بجُنونٍ، مُتَشابِكةً، مُتَلاطِمةً، بِلا **هَوادةٍ** أو **كَلَلٍ**. وعَبَثاً تُحاولُ أنْ تَنسِبَ حذاءَهُ إلى لَونٍ، فالألوانُ كلُّها مِنْه بَراءٌ لكَثرةِ **الأخاديدِ** الّتي عَلَتْهُ، والأوحالِ والبُقَعِ الّتي تَراكمَتْ علَيْهِ.

سارَ، يَداهُ في جَيبِهِ، وكَتِفاهُ مَرفوعتانِ ومَدفوعتانِ إلى الأمامِ، وأسنانُه تَصطَكُّ كُلّما حاولَ بَردُ كانونَ أنْ يَتغلغلَ في ثيابِهِ، بَينَما لَصِقَتْ أبصارُه بالأرضِ، شاردةً كأنّها تُماشي تَموُّجاً ذِهنيّاً أو تَفكيراً صُوِّبَ إلى نُقطةٍ يُمعِنُ فيها درساً وتحليلاً، مِن غَيرِ أنْ يُوَفَّقَ إلى مَخرجٍ

تمخُرُ: تشُقُّ، تخترِقُ.
العُبابُ: السّيلُ العظيمُ، وعُبابُ البحرِ مَوجُه.
الهَوادةُ: اللّينُ والرِّفقُ والتَّراخي.
الكلَلُ: التّعبُ.
الأخاديدُ: التّجاعيدُ والأثلامُ والحُفَرُ الطّوليةُ.

يَنفُذُ مِنْه إلى اليَقينِ: «مَن هو هَذا الرَّجلُ؟ كيفَ هو؟... مَن يُشبِهُ؟... لماذا؟... ولماذا؟». وهَكذا كانَتْ عَلاماتُ الِاستفهامِ تَرتسِمُ في ذِهنِه، ولَكنَّ الأجوبةَ لَم تَكُنْ سِوى علاماتِ استفهامٍ أكبرَ فأكبرَ تَتناثرُ حائرةً.

كانَتْ بَدْرُ أمُّ سميرٍ قابعةً على حَصيرٍ **مُخضرَمٍ** تَفحَصُ بعضَ قِطعِ الثّيابِ في ضوءِ القِنديلِ المُحتضَرِ على كُرسيٍّ إزاءَها، فتَضَعُ القطعةَ السّليمةَ إلى جانبِها الأيمنِ، وتَستعينُ على القِطعِ المُصابةِ - وما أكثرَها - بالمِقصِّ، تَبتُرُ به بعضَ الأعضاءِ الفاسدةِ، وبالإبرةِ، تَسُدُّ فيها بعضَ الجروحِ الّتي لَم تَفقِدْ كلَّ الأملِ في الشِّفاءِ. ودَخلَ سميرٌ في هَذه اللَّحظةِ وهو على الحالِ الّتي رأيْناهُ فيها، فلَم يُلقِ على أمِّهِ التّحيّةَ كما في العادةِ، بَلِ اتّجهَ نَحوَ مَقعدٍ قديمٍ وجلسَ عليْهِ صامتاً، **واجماً**. أمّا بَدْرُ فقَدْ شَيّعَتْهُ بأنظارِها مُنذُ دخولِه، فلَم يَفُتْها أنَّ وراءَ هَذا التَّغيُّرِ سرّاً يَجبُ أنْ تَكشِفَ عَنْه السّتارَ، فطَرحَتْ

المُخضرَمُ: الّذي عاشَ بينَ جيلَيْنِ أو عَصرَيْنِ.
واجماً: ساكتاً مِن خَوفٍ أو غَيظٍ.

إلى جانبِ قميصاً كانَ بيَدِها، ونَهضَتْ، وأنظارُها ما زالَتْ مُعلَّقَةً بسَميرٍ، ودَنَتْ مِنْه مُبتسِمةً فقالَتْ:

- سَميرُ! ما بكَ يا حَبيبي؟

- لا شيءَ يا ماما.

- لا شيءَ؟ كيفَ لا شيءَ؟ ووَجهُكَ المُتجهِّمُ؟

- ...

- هَلِ خَسِرْتَ كِلَلَكَ؟

- اليومَ رَبحْتُ سَبعَ عَشْرةَ كِلّةً مِن غسّانَ.

- إذاً ماذا؟... آ... أنا أعرِفُ... لقَدْ ضَربوكَ!.. تَشاجَرْتُمْ أنتَ وأصحابُكَ فضَربوكَ. ها؟ لا شكَّ ولا عَجَبَ في هَذا، فأنتَ في هَذه الأيّامِ قدْ أصبحْتَ شِرّيراً. مُنذُ أُسبوعٍ ضَربْتَ أميناً فأتَتْ أمُّهُ إليَّ تُوَلوِلُ وتُهدِّدُ؛ ومُنذُ يومَيْنِ قَتلْتَ دجاجةَ أمِّ يوسُفَ وكَسرْتَ لَوحَ زُجاجٍ مِن نافذَتِها بـ «نُقَيْفَتِكَ» اللَّعينةِ؛ واليومَ صباحاً أتاني جارُنا الكِندرجيُّ وقالَ لي إنَّكَ تَجمَعُ بعضَ «الزّعرانِ» أمثالِكَ فتَرجُمونَهُ بالحجارةِ. فلا

عَجَبَ بَعدَ هَذه الأعمالِ الإرهابيّةِ كُلِّها أنْ يَتكاتفَ عَلَيْكَ الأولادُ ويَضرِبوكَ.

ـ ماما، مَن قالَ لكِ إنَّهُم ضَربوني؟ لَم يَضرِبْني أَحدٌ. لقَدْ أَدخلَني غسّانُ اليومَ إلى بيتِهِ ولَعبْتُ معَهُ بلُعَبِهِ، لُعَبِ العيدِ.

ـ لَم يَضرِبوكَ، ولَم تَخسَرْ كِلَلَكَ. أُصدِّقُكَ. ولَكِنْ لماذا لا تَقولُ لي سببَ وُجومِكَ؟

ـ ...

ـ حَسَنٌ، حَسَنٌ. عَمّا قريبٍ سيَأتي والِدُكَ. وهو يَعرِفُ كيفَ يَستنطِقُكَ.

وانصَرفَتِ الأمُّ إلى عملِها.

بعدَ خمسِ دقائقَ على التّقريبِ، تَقدَّمَ مِنْها سميرٌ ببُطءٍ، وجلسَ على الحصيرِ إلى جانبِها، ونَظَراتُه تَكشِفُ عَن رَغبةٍ داخليَّةٍ في أنْ يُطلِعَ والدتَهُ على سرٍّ لَم يَبقَ بوُسْعِهِ أنْ يَكتُمَهُ. وشَعرَتْ أمُّه بهَذا، ولكنَّها تَظاهرَتْ بعدَمِ الاكتراثِ، فرَفعَ سميرٌ إلَيْها عَينَيْنِ فيهِما

يَتكاتَفُ: يَتعاوَنُ، يَتسانَدُ.

استِجادٌ، فلَم يَكُنْ مِن بَدْرَ إلّا أنْ ضَمَّتْهُ إلَيْها بحُنوٍّ قائلةً:

ـ قُل لي يا سميرُ، قُل لي ماذا بكَ يا حَبيبي. أنا أمُّكَ.

وكانَ سميرٌ في تِلكَ اللّحظةِ يَنتظِرُ مِثلَ هَذا التّشجيعِ، فقالَ لأمِّهِ باندفاعٍ:

ـ ماما، مَن هو «بابا نُويل»؟ أتَعرفينَهُ؟ لماذا لا يَأتي إلى هُنا؟ لماذا لا يُقدِّمُ إليَّ اللُّعَبَ يومَ العيدِ مِثلَ غيري؟ إي ماما؟ لماذا؟... لماذا... إي؟...

تَلبَّدَ وَجهُ بَدْرَ، و**حَملقَتْ** إلى سميرٍ طويلاً، ثُمَّ ضَمَّتْهُ إلى صدرِها أشدَّ فأشدَّ، وراحَتْ تَستسلِمُ لسُيولٍ مِنَ الفِكَرِ تَتقاذفُها، وتَبعَثُ في فؤادِها لَوعةً تَرسُمُ على وَجهِها أَماراتٍ مِنَ الحُزنِ والألَمِ. «بابا نُويل»؟ إنّها تَعرِفُه، نعمْ. تَعرِفُ أنَّهُ يَحمِلُ الهدايا واللُّعَبَ إلى الأولادِ الأغنياءِ، ولا يُعرِّجُ على بيوتٍ حقيرةٍ خَيَّمَ علَيْها الفَقرُ. إنَّهُ معَ التّيّارِ، لَم تتعوَّدْ عَيناهُ أنْ تُمزِّقا **الدَّيجورَ** لرُؤيةِ ما يَتخبَّطُ فيه مِنَ

حَملَقَتْ: فَتحَتْ عَينَيْها ونَظرَتْ شديداً.

الدَّيجورُ: الظّلامُ.

الكُتَلِ البَشريّةِ البائسةِ، بَل هُما تَجولانِ في القصورِ حَيثُ الأضواءُ وحَيثُ النّعيمُ... لقَدْ كانَ سميرٌ في الماضي يَرضى ببِضعِ حبّاتٍ مِنَ المُلبّسِ في العيدِ فيَقَضُّ عنَيْها اعتقاداً مِنْه بأنَّ أثمنَ ما يَستطيعُ الولدُ أنْ يَملِكَهُ هو المُلبّسُ. أمّا الآنَ فلَهُ رُفقاءُ مِن مُختلِفِ الطّبقاتِ، يَرى ما عندَهُم ويَسمعُ ما يَقولونَ، فيَعلمُ أنَّ هُنالكَ أشياءَ أُخرى غَيرَ المُلبّسِ يَحلُمُ بها الأطفالُ، ويَحزنُ لأنَّ ما يَنعَمونَ به لا يَعرِفُ إلى بيتِهِ سَبيلاً. هو طفلٌ، وهُم ما يَزالونَ أطفالاً، ولَكِنَّ لهُم على الحياةِ سلاحاً، أمّا هو فلَيسَ لهُ في وَجهِها العابسِ سوى الفُتاتِ و**الأسمالِ**. ثُمَّ ما ذَنْبُه هو؟ ما ذَنْبُ طفلٍ ما عَرفَ مِنَ الحياةِ لا السّوادَ ولا البياضَ؟ أفَتُمنَحُ السّعادةُ لمَن يَشتريها بالمالِ ويُحرَمُ مَن يَستحقُّها إذا كانَ فقيراً، فلا تَقترِبُ مِنْه إنْ لَم يُقرِّبْهُ المالُ مِنْها؟ والوالِدونَ؟.. أفَلا يَتألّمونَ عندَما يَرَوْنَ أكبادَهُم تَنظرُ إلى غَيرِهِم بعَينٍ حاسدةٍ،

الأسمالُ: الثّيابُ الباليةُ.

غابطةٍ، حزينةٍ، **نَهِمةٍ**، تُريدُ أنْ تَحصُلَ على شيءٍ ممّا عندَهُم، وهَيهاتَ، فمَنالُ هذا الشّيءِ في نَظرِهِم أبعدُ من منالِ النجومِ؟ ولَكِنَّ الحياةَ هَكذا تَسيرُ، وُجِدَتْ لتَكونَ عدلاً وإنصافاً ومُساواةً وإخاءً، فحَوَّلَها بعضُ النّاسِ إلى حَلْبَةٍ للصِّراعِ يَصمُدُ فيها مَن يَكونُ أقوى وأخبثَ وأدهى، والنّاسُ للصّامدِ يُصفِّقونَ، ولا يَكترِثونَ لمَن **يَخِرُّ** ويَمضي.

هَذه الفِكَرُ الجامحةُ مرَّتْ في خاطرِ بَدْرَ، وسميرٌ يَنظرُ إلَيْها صامتاً؛ فسألَتْهُ بعدَما مَسحَتْ بطَرَفِ كُمِّها طلائعَ دمعتَيْنِ تَلألأتْ في مِحجَرَيْها:

ـ مَن أخبرَكَ عَن «بابا نُويل» يا سميرُ؟

ـ غَسّانُ يا ماما. لقَدْ أَهدى إلَيْهِ لُعَباً مُنذُ يومَيْنِ لمناسبةِ عيدِ رأسِ السّنةِ.

وعلى الرُّغمِ مِن هَذه السُّحبِ المُتلبِّدةِ فوقَ قلبِها

غابطةٍ مُعظِّمةٍ، مُتمنّيةٍ مِثلَ حالِ مَن تَنظُرُ إلَيْهِ.
نهمةٍ شرهةٍ، شديدةِ الشّهوةِ
يخرُّ يسقُطُ، يقعُ.

ووَجهِها، استطاعَتْ أنْ تَبتسِمَ وتَقولَ لولَدِها:

ـ غداً يا سميرُ يَكونُ لكَ ما تُريدُ. سيَأتي «بابا نُويل» إلَيْكَ أيضاً، فيُعطيكَ ما تَشتهي.

كانَ سميرٌ يَحلُمُ بالعَرَباتِ الخَشبيّةِ والسّيّاراتِ الأوتوماتيكيّةِ، والبالوناتِ، حينَ دخلَ والدُه حَوالى السّاعةِ التّاسعةِ، بشَعرِهِ الطّويلِ ولِحْيتِهِ الكَثّةِ، وتَمدَّدَ على مَقعدٍ كانَ لِصْقَ البابِ، بعدَما رمى بَعيداً مِنديلَ الزّادِ الفارغَ.

ـ لقَدْ تأخَّرْتَ يا سليمُ.

ـ قولي هَذا للمسؤولينَ يا عزيزتي، لعلَّهُم يُدرِكونَ. فَوقَ كلِّ تَعبِنا وكلِّ شقائِنا يُريدونَ أنْ يَزيدوا في أحمالِنا. لقَدْ طَلبوا إلَيْنا أنْ نَعملَ ساعاتٍ إضافيّةً في هَذا الأسبوعِ على رُغمِ الأعيادِ، فعلَيْنا أنْ نَخضعَ مُوَقّتاً لأنَّ التّمرُّدَ مَعناهُ الطَّردُ فالجوعُ. حياةٌ! حياةٌ! مِنَ البيتِ إلى المَصنعِ، ومِنَ المَصنعِ إلى البيتِ! ويُسمّونَ هَذا الموتَ البطيءَ حياةً!

الكَثّةُ: الكثيفةُ الشّعرِ.

ثُمَّ نهضَ بعَصَبيّةٍ، ودَسَّ إحدى يدَيْهِ في جَيبِهِ، وراحَ يَقطعُ الغُرفةَ ذَهاباً وإياباً، ويَتكلَّمُ، ويُشفعُ كَلِماتِهِ بإشاراتٍ مِن يدِهِ الطّليقةِ:

ـ ... ولَكِنَّنا معَ هَذا سَنصبِرُ، ونُجاهِدُ، ونَأمَلُ، لنَشهدَ فجرَ ذلكَ اليومِ الّذي فيه يَتحقَّقُ العدلُ الاجتماعيُّ، فيَشعرُ العاملُ الفقيرُ أنَّهُ إنسانٌ لهُ ما لغَيرِهِ مِن حقوقٍ، بعدَما ألحَقوا به مِنَ الواجباتِ أكثرَ كثيراً ممّا يَحملونَ.

وكانَ سليمٌ يَتكلَّمُ بحماسةٍ كأنَّهُ خطيبٌ في جماهيرَ، وعلاماتُ الحِقدِ مرسومةٌ في عَينَيْهِ! ورأتْ بَدْرُ أنْ تُبدِّلَ مَجرى الموضوعِ وتُنقِذَ زوجَها مِن حالتِهِ الثّائرةِ، فاقتربَتْ منْه بلُطفٍ، وقالَتْ لهُ وقَدْ وَضعَتْ يدَها على كَتِفِهِ:

ـ اللهُ يُخلِّصُنا مِن هَذه الحالةِ يا سليمُ. سنَنجحُ بإذنِ اللهِ، لأنَّهُ معَنا...

ثُمَّ أضافَتْ:

ـ سليمُ... أتعرِفُ ماذا يُريدُ سميرٌ؟

ـ طبعاً أَعرِفُ أُسْطوانتَهُ الّتي يُردِّدُها كلَّ يومٍ: يُريدُ «فَرَنْكاً» ليَشتريَ كِللاً أَو بالوناتٍ.

ـ لا. لقَدْ قَبَ الأُسْطوانةَ الآنَ. سألَني عَن «بابا نُويل» والنُّعَبِ الّتي يُهديها إلى رُفقائِهِ.

قالَ سليمٌ بدَهشةٍ:

ـ وبماذا أَجَبْتِهِ؟

ـ لقَدْ وَعدْتُه بلُعبةٍ. إنَّكَ لا تَستطيعُ أنْ تَتصوَّرَ حالتي لمّا سَمعْتُه يَطرحُ عليَّ سؤالَهُ.

انقلبَتْ ملامحُ سليمٍ عَن الحماسةِ والثّورةِ إلى هدوءٍ وألمٍ. ثُمّ أدارَ وَجهَهُ نَحوَ النّافذةِ يَنظرُ خلالَها إلى الطّريقِ تائهَ البَصَرِ واللُّبِّ. والتفَتَ إلى زوجِهِ قائلاً:

ـ لقَدْ فكّرْتُ قبلَهُ «ببابا نُويل» يا بَدْرُ. كلَّ سنةٍ أقولُ: لا بدَّ لي مِن أنْ أَشتريَ له لُعبةً. وهَذه السّنةَ، كما في كُلِّ سنةٍ، فكّرْتُ في الأمرِ، ولَكِنّي، لمّا مدَدْتُ يَدي إلى جَيبي ووَجدْتُه فارغاً، ثُمّ فَحصْتُ ذِمّتي فرأيْتُها مُثقَلةً بالدّيونِ، عَدَلْتُ عَن فِكرَتي مُكرَهاً. ليَشهَدْ ربّي، لو كانَ مَعي خمسُ ليراتٍ لما بَخُلْتُ بها عليْهِ. ولَكِنْ...

وبعدَ صمتٍ قصيرٍ قالَتْ بَدْرٌ:

ـ اسمعْ يا سليمُ، اللُّعبةُ يَجبُ أنْ تَحضُرَ إكراماً لسميرٍ. انتظِرْ قليلاً...

ثُمَّ تَوجَّهَتْ إلى خزانةٍ عتيقةٍ في الجِدارِ، وأخرجَتْ مِنْها صُرّةً صغيرةً فَتحَتْها وراحَتْ تَعُدُّ النُّقودَ المَعدِنيّةَ الّتي فيها، ثُمَّ أَعطَتْها لسليم:

ـ 415 قِرشاً. كنْتُ **أدَّخِرُها** لأشتريَ بها ثوباً لسميرٍ. خُذْها واشترِ لهُ بها لُعبةً، فقَدْ نامَ اللّيلةَ على أملِ أنْ يَستقبِلَ لُعبتَهُ مساءَ غدٍ.

وضَغَطَ سليمٌ على يدِ بَدْرَ.

وقفَ سميرٌ معَ والدتِهِ إلى النّافذةِ يَنتظِرُ قُدومَ والدِهِ، تُدغدِغُه الآمالُ العِذابُ، ويَعرِضُ اللُّعَبَ الّتي سيَحمِلُها لهُ «بابا نُويل»، بنَشوةٍ روحيّةٍ، وبطَلاقةٍ وبَشاشةٍ تُخيّمانِ على مُحيّاهُ: «ما هِيَ؟... كيفَ هِيَ؟... جِنسُها؟... لونُها؟... أسرارُها؟...». وكانَ هَذا الارتباكُ مَصدرَ

ادّخرَ وادَّخرَ الشّيءَ: جمعهُ واتّخذهُ وخبّأهُ ليومِ الحاجةِ إليْه.
النّشوةُ: أوّلُ السُّكرِ، والنّشوةُ الرّوحيّةُ: الشّعورُ بفرحٍ داخليٍّ.

بهجةٍ لِسميرٍ لا سببَ **انقباضٍ**. وكانَتْ بَدْرُ تُشارِك ولدَها في شعورِهِ وإحساسِهِ، ولَم تَكُنْ لِتَرتَبِكَ لو لَم تَمضِ السّاعةُ العاشرةُ مِن غَيرِ أنْ يَعودَ سميْرٌ. تَنَحَّتْ عَنِ النّافذَةِ وتَبِعَها سميرٌ، وجَلسَتْ معَهُ على الحَصيرِ تَنظُرُ بَينَ حينٍ وآخَرَ إلى صورةِ العذراءِ يَحترِقُ تحتَها فَتيلٌ ضَعيفٌ في قِنديلِ زيتٍ، فتُحرِّكُ شفَتَيْها مُتَمتِمةً قَلِقةً.

وفجأةً قُرِعَ البابُ قَرعاً خافِتاً، فهَبَّ سميرٌ وتَبِعَتْهُ بَـدْرُ. وما إنْ فَتحَ البابَ حتّى انتصبَ خلالَهُ ثلاثةُ رجالٍ بثيابِ العملِ، عَرَفَتْ فيهِم بَدْرُ رُفقاءَ لزوجِها، **فلَبِثَتْ** هُنَيهةً وهِي صامتةٌ، وهُم كَذَلكَ صامتونَ: هِي لا تَتجاسرُ على طرحِ السّؤالِ لأنّها لَم ترَ سليماً بَينَهُم فشَعرَتْ بشَيءٍ غريبٍ **يَعقِدُ** لسانَها، وهُم لا يَعرفونَ كيفَ يَبدؤونَ الحديثَ. حتّى قالَ أَحدُهم أخيراً:

الانقباضُ الإحساسُ بالضّيقِ والانزعاجِ.
لبثتْ وقفتْ، بقيتْ.
يعقدُ يربطُ.



ـ لا عليْهِ ولا عليْكِ يا سِتُّ بَدْرُ. فنَحنُ لَن نَتخلّى عنْكِ!

فصاحَتْ بَدْرُ مذعورةً:

ـ ماذا تَعني؟!

ـ إنَّهُ في المُستشفى... يدُه... أعني لا بأسَ... يَدُه... قطَعَتْها إحدى الآلاتِ... لا بأسَ عليْهِ... اتّكلي علَيْنا.

وانصرَفوا. ورَكعَتْ بَدْرُ تحتَ صورةِ العذراءِ تَذرِفُ الدّمعَ واهنةً مقهورةً، بينَما وقفَ سميرٌ أمامَها وعَيناهُ دامعتانِ. لَم يفهَمْ شيئاً ممّا جَرى، إلّا أنَّهُ رأى أمَّهُ تَبكي فبَكى، وقَدْ أدركَ شيئاً واحداً هو المُهِمُّ في نظرِهِ: أنَّ اللُّعَبَ لَن تأتيَ.

واهنةً: ضعيفَةً، مُتلاشيةً.

قصة

حَمْدون

مِن يومِ رَكِبَ «السّلُّ» ظَهرَهُ، وتَشبَّثَ الخِلانِ بكتِفَيْهِ يَخلعانِهِما إلى الوراءِ، وهُما **تنوءانِ** وتُكبّانِ مَدعورتَيْنِ فوقَ صدرِهِ، هَمَّتْ برأسِهِ الهُمومُ وراحَتْ **تُعتِعُه** سوداءَ جبّارةً. وما لَبِثَ عالَمُه أنْ أخذَ يَضيقُ ويَضيقُ، تارةً يَتّخِذُ شكلَ وَليمةٍ، وتارةً يَتّخِذُ حجمَ فِراشٍ، وطَوراً يتقلَّصُ لُقمةً، حتّى استَقرَّ أخيراً في قَعرِ سَلِّه: فإذا سَلُّه حَياتُه، ودُنياهُ، تَمتلئُ بامتِلائِهِ بسِلَعِ النّاسِ وبَحْبوحةِ النّاسِ، وتَخلو ما بَقيَ فارغاً مُكشِّراً. ولَكَمْ طَرحَ سَلَّهُ أرضاً، في غَفْةٍ مِنَ الأَعْيُنِ، وانقَضَّ

تنوءانِ: تَسقُطانِ (وتَعودُ لِكتفَيْنِ).
تُعتِعُه: تَهزُّه بعُنفٍ وتُحرِّكُه.

عَنَيْهِ يوسِعُه رَفساً ورَكلاً، ويودِعُ كلَّ ضربةٍ ضَمّةً ممّا يَعْتَوِرُ قَلبَهُ مِن عاصفِ الحِقدِ، مُرفِقاً سَمَّهُ بشَتيمةٍ حادّةٍ تَلعَنُ الحياةَ، ومَن في الحياةِ، وما في الحياةِ!

يا حياةَ الخَيبةِ، حياتَهُ! ما كانَ أَشقاهُ، هو، حَمدونٌ، وما كانَ أجهَلَهُ، يومَ اعتقدَ أنَّ السِّرَّ سيَضعُ حَدّاً لأوجاعِهِ، وأنّهُ سيَقيهِ ـ ما عاشَ ـ ذُلَّ السّؤالِ. لقَدْ كانَ غِرّاً لا يَرى في وَجهِ الحياةِ إلّا كلَّ مَلاحةٍ، ولا يَلمحُ في المستقبَلِ إلّا خيراً يَرينُ على الصِّعابِ. لِذا قالَ في نَفسِهِ ذاتَ يومٍ: «اسمَعْ، حَمدونُ، اسمَعْ جيّداً. كَفاكَ تَشرُّداً واستعطاءً. شريدٌ أنتَ يا حَمدونُ، كُرديٌّ أنتَ، لَفَظَتْكَ جبالُكَ حَيثُ لا وَطنَ، إلى حَيثُ لا وَطنَ. فإذا بكَ تَطوفُ في شوارعِ بَيروتَ، حَليقَ الرّأسِ، سائلَ المُخاطِ، مُتشقِّقَ الرِّجلَيْنِ، وقدْ تَمزّقَ الكيسُ

يعْتورُ قلبَهُ: يتردَّدُ في قلبه، يتداولُه.
يقيه: يصونُه ويحميه من الأذى.
يرينُ: يُسيطرُ ويغلبُ.
لفظَتْكَ: قذفَتْكَ.

الّذي احتالَتْ عليْه أمُّكَ فجعلَتْ مِنْه شِبهَ رداءٍ يكادُ لا يَستُرُ **عَوْرةً**، تَمُدُّ يدَكَ إلى السّابلةِ حانياً رأسَكَ جاباً بانكسارٍ، وماطّاً بكَلِماتِكَ شأنَ كلِّ شحّاذٍ كُرديٍّ صغيرٍ... ثُمَّ اشترَتْ لكَ أمُّكَ عُلبةَ عِلكةٍ، هي حَنى أصابعِها **الهريئةِ** بِفعلِ الماءِ السّالقِ والبوطاسِ، فإذا أنتَ شحّاذٌ مِن طِرازٍ جديدٍ: شحّاذٌ أرِسْتوقراطيٌّ، لا يَرميكَ النّاسُ بـ «اللهُ يُعطيكَ»، ولَكِنّهُم **يَتبرّمونَ بكَ**: أَفَلَمْ تَلحقْ بإحدى الفَتياتِ يوماً مِن ساحةِ البُرجِ حتّى ساحةِ السّراي القديمةِ، وأنتَ تَنِقُّ، بِلا كَلالٍ: يا ستُّ، يا سِتُّ، نَفّعيا؟ حَقٌّ لهُم أنْ يَتذمَّروا، فكَم مِنَ النّاسِ تَلحقُ بهِم **تَستحلِبُهُم** خمسةَ قروشٍ، وهُم ما مَشَوْا أمامَكَ إلّا تَهرُّباً مِن دفعِ خمسةِ قروشٍ في التّرامِ! ثُمَّ... أَفَتحمِلُ النّاسَ على أنْ يَأكلوا فَرَنْكاتِهِم لِغَيرِ

العورةُ كلُّ شيءٍ يستُرُه الإنسانُ من أعضائه استحياءً وأنفةً.
الهريئةُ: المهترئةُ
يَتبرّمونَ بكَ: يتضجّرونَ منكَ ويتأفّفونَ.
تَستحلِبُهُم: تستدرُّهم، تَستعْطيهم

ما شَبَعٍ؟... اترُكِ العِلكَةَ يا حَمدونُ، اتبَعْ ما نَصحَتْ لكَ به أمُّكَ: خُذْ لكَ سلّاً واعْتصِمْ بنُقطةٍ، تَنجُ مِن مِنّةِ النّاسِ، ومِن سَبِّ قاطعي التّذاكرِ في «التّرام».

هَكذا خاطبَ حَمدونٌ نَفسَهُ يَومَذاكَ: لقَدْ كانَ النّشاطُ مِلءَ **إهابِه**، والأمَلُ يُهَدهِدُ روحَهُ بالأمانيِّ العِذابِ. وكانَ **خليقاً** أنْ يَحمِلَ الدُّنيا كلَّها في سَلِّهِ كَسباً لِلُقمةِ الشّريفةِ، يَأكُلُها فلا تَقفُ في حَلقومِهِ حَسَكاً وشَوكاً مِن إحسانِ البَشرِ.

وَلَكمْ **زَها** حَمدونٌ يومَ حَملَ السَّلَّ. لقَدْ كانَ في الواقعِ سَلّاً ولا كالسّلالِ: قَصبٌ لمّاعٌ أبيضُ، **مُعْلَمٌ** بالحَرَزِ الأزرقِ. والحقُّ يُقالُ إنَّ حَمدوناً لَم يَجنِ مِن يومِهِ الأوّلِ في مِهنتِهِ الجديدةِ غَيرَ إكبارِ بَعضِ زُملائِهِ واستحفافِ بعضِهِم الآخَرِ: كانَ **نَزِقاً** يَنُطُّ كالدّوريِّ،

الإهابُ: الجلدُ.

خليقاً: جديراً، مُستحقّاً.

زها: تكبّر وأُعجب بنفسه.

مُعْلَمٌ: مميّزٌ بعلامةٍ.

نزقاً: خفيفاً، طائشاً.



يَذهبُ مِن رائفٍ إلى مُحمّدٍ، ويَقفِزُ مِن مُحمّدٍ إلى سَعيدٍ، فيُربِّتُ كَتِفَ كُلٍّ مِنْهُم، ويَتسمُ في وَجهِهِ كالأَبلَهِ، ثُمّ يَستديرُ حتّى يُلامسَ السَّلُّ وجهَ مُخاطَبِهِ، ويَقولُ:

ـ «شوفْ»!

إلّا أنَّ زملاءَه لَم يُقابلوهُ دائماً بما كانَ يَرجو مِن تَهليلٍ، بَل لقَدْ قابَلَهُ بعضُهُم بما لَم يَكُنْ يَنتظرُ قَطُّ، إذْ كانوا يُلقِمونَ قَفاهُ رِكلةً يَهتزُّ لها ظَهرُه، ويَئِنُّ لها السَّلُّ الحديدُ كأنَّما أَصابَهُ مَسٌّ.

بَيْدَ أنَّ فَرحتَهُ بالسَّلِّ ما عتّمَتْ أنْ تَلاشَتْ بتَلاشي الزَّمنِ، ليَحِلَّ مَحلَّها واقعٌ لئيمٌ يَجثُمُ **كالطَّودِ** على صدرِهِ: هربَ مِن تَسوُّلٍ ليَقَعَ في تَسوُّلٍ، فلا يَكادُ يَنجو مِنْه إلّا ليَقَعَ أخيراً في تَسوُّلٍ حديدٍ خبيثٍ! لقَدْ حاولَ أَوَّلَ الأمرِ أنْ يَجعلَ الحياةَ تَنقادُ إلَيْهِ، فكانَ **يَحدُجُ** النّاسَ الحامِلينَ مُشتَرياتِهِم مِن غَيرِ أنْ يَدنُوَ

الطَّودُ الجبلُ.
يحدُجُ يُحدِّقُ.

مِنْهُم، وكأنَّ عَينَيْهِ تَقولانِ لهُم: «أمّا إنّكم تَعبونَ، فهَذا أمرٌ بَديهيٌّ... ولَكِنْ لا تَنتظروا مِنّي أنْ أُسارعَ إلَيْكُم كأنّي شَحّاذٌ. أنا هُنا، إذا شِئتُمْ... على أنْ تَقترِبوا أنتُمْ مِنّي!». وكانَ رُفقاؤه لا يَنونَ، ساعينَ، صارخينَ، مارحينَ، شاتمينَ، راكضينَ وراءَ هَذا، مُعترِضينَ سبيلَ ذاكَ، مُربِّتينَ ذراعَ أَحدِهِم لعَلَّهُ يَنتبِهُ لهُم فيُحمِّلُهُم ما يَحمِلُ. وكانوا، لفَرْطِ الإلحاحِ، يَحظَوْنَ أحياناً بما يُكافئُ ماءَ الوجهِ المبذولَ، فإذا بهِم يَحمِلونَ بعشَرةِ قروشٍ، أو بخمسةَ عَشَرَ قِرشاً، أو بأكثرَ، وحَمدونٌ راسٍ كالطَّودِ على المَدخلِ الغربيِّ «لسوقِ الخُضرةِ»، حَيثُ تَلتقي السّوقُ بشارعِ «المَعرِضِ». إنَّها نُقطتُه، وهو لَن يَحيدَ عَنْها.

ولَكِنَّ حمدوناً ما لَبِثَ أنْ أدركَ أنَّ هَذا المَوقِفَ الّذي يَقِفُه قَمينٌ بأنْ يَدفعَ به إلى البَوارِ التّامِّ. فأمَّه، يا

يَنون: يَكلّونَ ويَتعَبونَ ويَضعُفونَ.
قَمينٌ: خليقٌ، حَديرٌ.
البَوارُ: البطالةُ والتّعطُّلُ مِنَ العَمل.

حَسرَتِها، تَبيعُ قَلبَها ورِئَتَيْها بالقروشِ، تُكَنِّسُ هُنا، وتَمسحُ هُناكَ، وتَغسِلُ هُنالِكَ، وهي، في كوخِها، باتَتْ تَسقي الأرضَ دماً يَعتصِرُه السُّعالُ مِن صدرِها. وقَدْ أَقسمَتْ برحمةِ والدِهِ أنْ لا تُريَهُ قرشاً بعدَ اليومِ: إِنَّهُ في الخامسةَ عَشْرَةَ، أفَما آنَ له أنْ يأكُلَ مِن كدِّ يَمينِهِ؟ لِذا لَم يَجِدْ حَمدونٌ بُدّاً مِنَ الانصياعِ: النّاسُ أمامَهُ **يُؤثِرونَ** الإحسانَ على إحقاقِ العدلِ، فيُسارِعونَ إلى الذّليلِ، إلى الّذي يَئِنُّ، مُعرِضينَ عَن ذي الشَّممِ الّذي يَنتظِرُ مِنَ الحياةِ حقّاً لا إحساناً. وما دامَ هَذا شأنَ البَشرِ، وما دامَ هَذا شأنَ رُفقائِهِ، فلماذا يَنزَمُ خِطَّتَهُ، وكأنَّهُ حَيوانُ قَفرٍ **طَوَّحَتْ** به الأقدارُ، فلا ماءَ، ولا **كَلأَ**، ولا رفيقَ! فوَاللهِ لَيَنقُّنَّ ما طالَ النّهارُ، ولَيَقْرَعَنَّ آذانَ البَشرِ بالنَّغَمِ الذَّليلِ، ولَيَزْحَفَنَّ أمامَهُم، لأنَّ هَذا كَفيلٌ بأنْ يُحرِّكَ قلوبَ مَن آمَنوا بالذُّلِّ والأنينِ والزَّحفِ.

يُؤثِرون: يُفضِّلون.
طَوَّحَتْ به: رمَتْهُ في المهالكِ.
الكَلأُ: العُشبُ.

وراحَ حَمدونٌ يَنِقُّ. وراحَ حَمدونٌ يُطارِدُ النّاسَ نَهِماً، شَرِهاً، يَوَدُّ لو يَحمِلُهُم معَ أشيائِهِم ويَطرَحُهُم في سَلِّهِ مُقابِلَ قروشٍ... إلّا أنَّ رُفقاءَهُ كانوا يَدفعونَهُ حسَداً مِن سَلِّهِ اللّمّاعِ، فإذا بهِم يَستأثِرونَ بالرِّزقةِ المرّةَ بعدَ المرّةِ. وكانَ يومٌ اقتربَتْ فيه مِن حمدونٍ عَجوزٌ لتُحَمِّلَهُ حُضرَتَها، بَيْدَ أنَّ أحدَ زُملائِهِ، صابِراً، دَفعَهُ بعُنفٍ، وانتزعَ الأكياسَ مِن يَدِ العَجوزِ قائلاً:

أنا دائماً أَحمِلُ يا سِتُّ. هَدا... «غَنْوَجي».

ولَم يدرِ حَمدونٌ ما يَفعلُ. أَيَهجُمُ على غَريمِهِ ويَعجُنُه عَجناً، أمْ يَترُكُ له رِزقَتَهُ حَلالاً مبارَكةً؟ أمّا أنْ يَهجُمَ علَيْهِ فهَذا أمرٌ يَدعو إلى التَّفكيرِ الجِدِّيِّ، لأنَّ لصابرٍ يَدَيْنِ كأنَّهُما مِذراتانِ، لو أَطبَقَتا على حَمدونٍ لَقَذَفَتا بأَضلاعِهِ إلى جَوفِ سَلِّهِ! ولَكِنَّهُ لا يُمكِنُه أنْ يَصبِرَ على الإهانةِ. إنَّ بَطنَهُ لَيَقولُ له هَذا: فمُنذُ مُدّةٍ وطعامُ حَمدونٍ لا يَعدو كَمّيّةً مِن سمكِ البِزرةِ يَشتريها

المِدراةُ خشبةٌ بعصاً، ذاتُ أطرافٍ كالأصابعِ، تُذرّى بها الحبوبُ بعدَ دَرسِها على البَيْدَرِ.

بخمسةِ قروشٍ، وقبعةً مِنَ الخُبزِ يَتيمةً. حتّى إنَّ «نجماً المُغربيّ» صاحبَ المطعمِ لَقَّبَ حَمدوناً بِـ «زَبونِ الخمسةِ». ولَكِنْ أنّى لحَمدونٍ أنْ يَتغلّبَ على عريمِهِ الآنَ؟ لا بُدَّ له مِن أنْ يَكونَ قويّاً، أَجَلْ! إنَّ الحياةَ، كما يَرى، لِلقويِّ! يَجبُ أنْ يَكونَ قويّاً!

وغَدا حَمدونٌ في اليومِ التّالي إلى عمِلِهِ وكأنَّهُ قدْ أصبحَ حَمدونَيْنِ. وكانَ أوّلُ عملٍ قامَ به أنْ هجمَ على صابرٍ على حينِ **غِرّةٍ**، ورَماهُ أرضاً، وراحَ يَكيلُ له الضَّرَباتِ، والزُّملاءُ مَصعوقونَ وقدْ جَبَهَتْهُمُ الحادثةُ فسَمَّرَتْهُم. ولَم يَعرِفْ حَمدونٌ مِن أينَ كانَتْ له تِلكَ القوّةُ، ولَم يَعرِفْ كَيفَ **قُيِّضَ** له أنْ **يُرْغِمَ أنفَ** صابرٍ؛ إلّا أنَّهُ أَدركَ شيئاً أساسيّاً لِحياتِهِ أثلجَ صدرَهُ، وهو أنَّهُ، مُنذُ تِلكَ اللّحظةِ، قدْ فَرضَ على الجماعةِ هَيبَتَهُ، تِلكَ الهَيبَةَ الّتي كانَتْ تَنمو كُلّما طَرحَ أحدَهُم أرضاً، أو كُلّما عَقَفَ حاجبَيْهِ بغَضَبٍ.

الغِرّةُ: الغفلةُ.
قُيِّضَ: قُدِّرَ.
أرغمَ أنفَ فُلانٍ: مرّغَهُ بالرَّغامِ أي التّرابِ إذلالاً وتحقيراً.

زادَ دَخلُ حَمدونٍ، حتّى إنَّهُ عافَ مَطعَمَ «المُغرَبيِّ» ويمَّمَ شَطْرَ مَحلِّ الفَلافلِ ذي البابَيْنِ الواسعَيْنِ، وراحَ يَدفعُ خمسةً وعشرينَ قرشاً ثمنَ رَغيفٍ حُشِيَ بخَليطٍ مِنَ الفَلافلِ والبَندورةِ والفِجلِ والبَقدونِسِ، تَسبحُ كلُّها في بِركةٍ مِنَ الطَّحينةِ! وما لَبِثَ أنْ أَصبحَ مِن رُوّادِ المحلِّ الدّائمينَ المَرموقينَ، فإذا به يَجلِسُ إلى طاولةٍ، فيأتيهِ الخادمُ بالرَّغيفِ المَحشُوِّ وبزُجاجةٍ مِنَ الماءِ المُثلَّجِ، حتّى إذا ما أنهى أكلَهُ رَمى أمامَ صاحبِ المحلِّ خمسةً وثلاثينَ قرشاً وانصرفَ. ولَم يَكُنْ يَدخُلُ وَحدَهُ دائماً، فكثيراً ما كانَ يَستَصحِبُ زميلاً له ويَشتري له رغيفاً، وكثيراً ما كانَ يَخرجُ مِنَ المحلِّ، وفي يدِهِ رغيفٌ مَحشُوٌّ يتقدَّمُ به مِن صابرٍ ويُعطيهِ إيّاهُ قائلاً:

ـ صابرُ، خُذْ. كُلْ.

ولَكِنَّ لَكماتِ حَمدونٍ، وهِيَ الّتي كانَتْ خيرَ حُجّةٍ يُقنِعُ بها زُملاءَهُ بضَرورةِ الابتعادِ عَن نُقطتِهِ، ما

يَمَّمَ شَطرَ المكانِ: قَصَدَهُ وذهبَ ناحيتَهُ.
يَستَصحِبُ: يأخذُ بصُحبتِهِ، يَدعو أحداً إلى صُحبتِهِ.

كانَتْ لِتُقْنِعَ الزُّبُنَ بِصِحّةِ هَذا المَنطِقِ. فكانَ الكثيرونَ يَزْوَرّونَ عَن صاحِبِنا عندَما يَرَوْنَ فيه تِلكَ **الفَظاظَةَ**، ويَميلونَ بِسِنَعِهِم عَنْه إلى سِواهُ، **فيَكظِمُ غَيظَهُ** بَعدَ لأْيٍ، ويَنتظِرُ فُرصةً أُخرى يُعوِّضُ فيها. وفي أَحدِ الأيّامِ انقضَّ على أَحدِ هَؤلاءِ المُزاحِمينَ يَضرِبُه ويَضرِبُه، وهو مِن حِقدِهِ في شِبهِ غَيبوبَةٍ. إلّا أنَّهُ استفاقَ مِن **ذُهولِه** على هَزّةٍ زَعزعَتْ رأسَهُ، فالتفَتَ إلى فَوْقُ، فإذا به أمامَ شُرطيٍّ بَلديٍّ يُحاوِلُ أنْ يُهوِيَ على رأسِهِ كَرّةً ثانيةً **بِهَراوتِهِ**. وهُنا وَثَبَ حَمدونٌ على الشُّرطيّ، والرّيقُ يَسيلُ على ذَقنِهِ، فأَنشَبَ في وَجهِهِ أظفارَهُ، ثُمَّ راحَ يَنهَشُ يدَيْهِ ورِحلَيْهِ وثيابَهُ بسُرعةٍ جُنونيّةٍ، وكأنّهُ لا يَنهَشُ الشُّرطيَّ الّذي أمامَهُ فَحَسْبُ، بَل يَنهَشُ الظُّلمَ، والحياةَ، وكلَّ مَن يَعترِضُ دونَ حقِّهِ في العيشِ الشّريفِ!

يَزْوَرّونَ: يَميلونَ، يَحيدونَ.

الفظاظةُ: الخُشونةُ وسوءُ الخُلُقِ.

يَكظِمُ غَيظَهُ: يَحبِسُ ويَكبِتُ غضَبَهُ.

الذُّهولُ: الغِيابُ عَنِ الرُّشدِ والوَعيِ.

الهَراوةُ: العَصا الضَّخمةُ والغَليظةُ.

الاستثمارُ التّربويُّ

1 جَدَّتي

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1. ماذا عَنى الكاتبُ بقَولِهِ: «بَكَيتُ جَدَّتي يومَ ماتَتْ بُكاءَ مَن يَدفِنُ قلبَهُ»؟ ولِماذا بَكاها؟
2. متى كانَ الكاتبُ يَلجأُ إلى جَدّتِهِ؟ ولماذا؟
3. قالَ الكاتبُ: «ولِهَذه اللّيلةِ (لَيلةِ الغِطاسِ) طقوسٌ خُلِطَ فيها الدِّينُ بالخُرافةِ والظّنونِ»؛ وضِّحْ هذه الطُّقوسَ مستنداً إلى ما وردَ في القصّةِ.
4. كانَ لِكُلٍّ مِنَ الأولادِ والجَدّةِ خِطّةٌ مرسومةٌ بصَمتٍ، ليلةَ الغطاسِ عندَ انتظارِهم مجيئَها؛ ما كانتْ خطّةُ الأولادِ؟ وخطّةُ الجدّةِ؟ وأيُّ الخطّتينِ كانتْ أنجحَ؟ لماذا؟
5. ما الشّروطُ الأربعةُ الّتي كانتِ الجدّةُ تضعُها ليلةَ الغطاسِ، لِتُمكِّنَ حُفَداءَها مِن رؤيةِ المسيحِ؟
6. لماذا كانَ الكاتبُ يَخافُ مِنَ الظّلامِ؟ ومَن حمّلَ المسؤوليّةَ في خوفِهِ وجُبنِهِ؟

لماذا كانَتْ فَرحةُ الجدّةِ عظيمةً حينَ بدأَ الكاتبُ عملَهُ؟

8. بِمَ كانَ الكاتبُ يشعرُ عندما ينتقلُ إلى القريةِ صيفاً؟ وما أسبابُ هَذا الشّعورِ؟

2 مِن وَحْيِ النّصّ

1 هَل تذكُرُ من طفولتِك بعضَ ما يُشبهُ ذكرياتِ الكاتبِ؟ أخبِرْنا بعضاً منها.

2 إلامَ يَرمُزُ عيدُ الغِطاسِ عندَ المسيحيّين؟ وهل ستظرُ أنتَ ليلتَهُ كما كانَ الكاتبُ وإخوتُه يفعلونَ؟ لماذا؟

3 هَل تبُثُّ أنتَ جَدّتَكَ بَعضَ أسرارِكَ؟ لماذا؟

4 هَل تحبُّ أنتَ حياةَ القُرى؟ لماذا؟

5 قالَ الكاتبُ إنّهُ كانَ يشرحُ لجدّتِهِ خصائصَ الدّولةِ وخصائصَ الوطنيّةِ؛ هَل لكَ أنْ تَشرحَهما لنا بِدَوْرِكَ؟

6 كانَ أهلُ الكاتبِ يُخيفونهُ بالغيلانِ والشّياطينِ؛ هل تخافُها أنتَ؟ ولماذا؟ وهَل كانَ أهلُكَ يُخيفونَكَ بشيءٍ آخرَ؟ ما هو؟

3 في التّعبيرِ واللُّغة

1 وَرَدَتْ في القصّةِ على لسانِ الكاتبِ تعابيرُ عامّيّةٌ؛ اخترْ منها خمسةً واكتبْها باللُّغةِ الفُصحى.

2 كثُرتْ في القصّةِ التّشبيهاتُ والاستعاراتُ؛ اخترْ منها تشبيهَين واستعارتَين، واشرحْها مبيّناً أركانَ كلٍّ منها، والمعنى الّذي عبّرتْ عنهُ.

3 حوِّلِ العبارةَ التّاليةَ إلى صيغةِ المُثنّى، ثُمَّ إلى صيغةِ الجمعِ: «فقدْ كانتْ، بعدَ موتِهِ، فقيرةً لا تَملكُ قرشاً، بعدما وهبَتْ ثروتَها بكاملِها، نقداً».

4 حدِّدْ نوعَ «الفاءِ» في كلٍّ مِنَ العباراتِ التّاليةِ:

لَم تكُنْ قصّةُ الإرهابِ فأبكيَ فيها شبابَها؛ فقدْ يَبِسَتْ في

الشّماس ـ رغبتُ إلى أُمّي أنْ تفتح الحرذان، ففعلتْ ـ كُنْتُ أحياناً أعذُرُ بهِ، فتُحذِّرُني ـ شددْتُ على يدها أكثر فأكثر ـ وإنْ كُنْتُ أحياناً أُحبُّ أنْ أَغيظَها، فلكِنْ أنعَمَ...

د احزِمِ الأفعالَ المضارِعةَ في ما يَلي، واضبطْ أواخرَها:

وتَبكي أُمّي حناناً، وتَصحَبُ، وتُهدّئُ من روعي، فصمتي، فارتاحُ.

معاولُ الأرض

أ في الفهم والتّحليلِ

1 لماذا أصبحَ النّاسُ يُصغونَ إلى صوتِ الشّيخ زين العابدينَ في أذانِه، بعدما كانوا لاهينَ عنهُ بعطيطهم أو بمشاغلِهم؟

2 ماذا عَنى الكاتبُ بالمعاوِلِ مِن قلبِ الأرضِ، الّتي بعثرتْ كِبرياءَ الحجارةِ الّتي كانَتْ بالأَمسِ بيوتاً أو أشباهَ بيوتٍ؟ اشرَحْ هَذه الصّورةَ بوضوحٍ

3 كيفَ كانَتْ حالُ النّاسِ بعدَ الزّلزالِ؟ ما العباراتُ الّتي تدلُّ على تلكَ الحالِ؟

4 لماذا ابتسم رؤوفٌ عندَما سألَ أخاهُ: «حُسَينُ، صاحٍ؟» فأجابَهُ حُسَينٌ: «صاحٍ، وأنتَ؟».

5 لماذا همَّ رؤوفٌ بالبكاءِ عندما استيقظ؟ وما الّذي جعَلهُ يكبُتُ دموعَهُ؟

6 لماذا رفض رؤوفٌ تسلُّم حصّته وحصّة عائلته منَ المأكولاتِ؟ ولماذا عاد فقبِلَ تسلُّمَها؟

بين النّاس من يتحدثون من مصائب غيرهم محلاً للفرحة أو الظّهور؛ هل بدا لكَ شيءٌ من هٰذا في القصّةِ؟ أينَ؟ وكيف تفسّرُ هٰذه الظّاهرةَ؟

2 مِن وَحْيِ النّصّ

1. كم مرّةً يُفترضُ على المُسلمين أنْ يُصلّوا في اليوم؟ وفي أيِّ أوقاتٍ؟ وما العبارةُ الّتي يدعو بها المؤذّنُ النّاس إلى الصّلاة؟
2. في أيِّ سنةٍ حدثَ الزّلزالُ في لبنان؟ وأيُّ المناطق كانتِ الأكثر تضرُّراً منهُ؟ لماذا؟
3. ما المؤسّساتُ الّتي تُسارعُ إلى عمليّاتِ الإنقاذ والإسعاف والإغاثة في مثل هذه الحالاتِ؟ عدِّدْها وبيِّنْ دور كلٍّ منها.
4. ما أبرزُ أنواعِ المأكولاتِ الّتي كانَ أهلُ القُرى يقتاتون بها؟ يُمكنُكَ الاستعانةُ بما وَردَ في القصّةِ.

3 في التّعبيرِ واللُّغةِ

1. فتِّشْ في القاموس عن معاني المفرداتِ التّالية (باللّونِ الأسود)، بحسبِ استعمالها في القصّة:
الرّحابُ - لحنٌ رتيبٌ - الشّمَمُ - المرقةُ الأولى - إلى أيّامٍ خَلَتْ - رَقدَ بعضُ الخرافِ في مرابضَ مُرتجَلة
2. صِفْ لنا شخصيّةَ رؤوفٍ كما ظَهرَتْ لكَ مِن خلالِ هٰذه القصّةِ.
3. اشرَحْ معانيَ العباراتِ التّاليةِ:
لشّوادرُ أيضاً كانتْ تعيشُ - إنّهُ الآنَ ربٌّ لأمٍّ وشقيقتين - قصي

سنواتٍ يَتحوّلُ في صَفَحاتِ «المِرقاةِ الأولى» ـ لَم يَتعلَّم الشَّممَ في المدرسةِ، لأنَّ البرامجَ تَبيعُ أصنافاً أُخرى.

4 عيِّنْ محلَّ الجُملِ الموضوعةِ بينَ قوسَينِ، في الإعرابِ:
أدركَ رؤوفٌ (أنَّ أهلهُ مستيقظون) ـ أفكروا (يناموب) في العراءِ؟ ـ صحيحٌ أنَّهُ كانَ، إلى أيّامِ (خَلَتْ) تلميذاً (يختلفُ) نهاراً إلى المدرسةِ ـ صحيحٌ [أنَّهُ (كانَ محدوداً)] ـ قضى سنواتٍ (يتجوَّلُ) في صَفَحاتِ «المِرقاةِ الأولى» ـ خَرجَ من تحتِ الحصيرِ و(يداهُ في جيبَيْ سِرواله) ـ لَيتَهم (صَدَّقوا حَدْسَها) ـ وكانَ شامخَ رؤوفٍ (أنَّهُ يتيمٌ).

3 بـو مِـرعـي

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1 بِمَ كانَ بو مِرعي يفتخرُ في شبابِه؟ وماذا كان شعارُهُ؟

2 ما كانَتْ فلسفتُه الاجتماعيّةُ الوطنيّةُ في شَيخوختِهِ؟ وما الأسبابُ الكامنةُ وراءَها؟

3 كيفَ فهِمَ بو مِرعي وجماعتُهُ الانتخابَ؟ وهل تُوافِقُهم على مفهومِهِم هذا؟ لِماذا؟

4 ما رأيُكَ في فاضل بيكْ شحرور؟ وهل ترى نوّابَ هذه الأيّامِ مثلَهُ؟ لِماذا؟

5 هل أقنعَتْكَ الحُجَجُ الّتي قدّمَها فاضل بيكْ شحرور لِبو مِرعي، عندَما جاءَهُ معَ الوفدِ مطالبينَ بتغييرِ تخطيطِ الطّريقِ ومدِّ الكهرباءِ؟

6. لماذا صوّر الكتبُ السّياسيّين وغير السّياسيّين أولاداً كباراً يتسلّونَ بالدّيمقراطيّةِ؟

2 مِن وَحْيِ النّصِّ

1. بعد كَم سنةً يُمكنُكَ أنْ تَنتخبَ؟ وهل ستقومُ بالانتخاب وتختارُ نوّاباً يُمثّلونكَ؟ لماذا؟
2. بمَ يجبُ أنْ يتّصفَ المرشَّحُ الّذي تَرغبُ في انتخابِهِ؟ لماذا؟
3. ماذا تَعني لكَ كلمةُ «ديمقراطيّةٍ»؟ وهَل تَراها مطبّقةً في لبنانَ؟
4. ما عددُ نوّابِ المجلسِ النّيابيِّ في لبنانَ؟ وما مدّةُ كلِّ ولايةٍ نيابيّةٍ؟
5. هَل تَعرفُ ما مَعنى «مفتاحٌ انتخابيٌّ»؟ وهَل تُحبُّ أنْ تكونَ مفتاحاً انتخابيّاً؟ لماذا؟

3 في التّعبيرِ واللُّغةِ

1. وَردتْ في القصّةِ مجموعةٌ من التّعابيرِ الّتي يستعملُها المُتظاهِرونَ بالتّواضُعِ الخبيثِ الكاذبِ؛ استخرِجْها ثُمّ أضِفْ إليْها تعابيرَ أُخرى تعرفُها من النّاسِ وتصبُّ في الهدفِ نفسِه.
2. ارسُمْ لنا لوحةً بالكلماتِ تُصوّرُ فيها بو مرعي في شبابه وفي شيخوختِه.
3. أوّلْ «أنْ وما بعدها» بالمصدرِ الصّحيحِ، ثُمّ اذكُرْ محلَّ هذا المصدرِ في الإعرابِ: يريدُ أنْ يتكلّمَ - يسرُّنا أنْ نُعلنَ أسماءَ الفائزين - يتجاسرُ أنْ يجرحَ كرامةَ بو مرعي - طالبينَ أنْ تُشقَّ

الطَّريقُ - لم يكُنْ مُستغرَباً أنْ تثورَ ثائرةُ بو مِرعي - كانَ بِوُدِّهِ أنْ يأمُرَ بطرِدِهِ - بعد أنْ عتّمَتْ قلوبُنا - يا بو مِرعي جَرِّبْ أنْ تفهم.

في سبيلِ اللُّقمة

في الفَهمِ والتّحليلِ

1. عَن أيِّ قريةٍ يتحدّثُ الكاتبُ؟ ولماذا كانَ أبناءُ هَذه القريةِ خائفين؟
2. ما أهمّيّةُ وجودِ الزّوجِ والأبِ في لَحظاتِ الخوفِ؟ وأينَ ظهرَتْ لكَ هَذه الأهمّيّةُ في القصّةِ؟
3. في طبعِ الفتى حريس وتصرُّفاته بعضُ التّناقض؟ كيف ظهر لك هذا التّناقضُ؟ وأينَ؟
4. ما الّذي يُبيّنُ سوءَ معاملةِ الأتراكِ لأهالي القُرى في هَذه القصّةِ؟
5. كيفَ تُفسّرُ تصرُّفَ الجُنديِّ في آخِرِ القصّةِ؟

مِن وَحْيِ النّصّ

1. جَرَتْ أحداثُ هَذه القصّةِ خلالَ الحرب العالميّةِ الأولى؛ متى بدأَتْ تلكَ الحربُ؟ ومتى انتهتْ؟ وبينَ أيِّ دُوَلٍ خصمتْ؟
2. كَم دامَ حُكْمُ العُثمانيّينَ الأتراكِ لُبنانَ؟ وكيفَ انتهى؟
3. مِمّ كانَ النّاسُ يصنعونَ الخُبزَ في أيّامِ الحربِ؟ ولِماذا؟

3 في التّعبير واللُّغة

1. في القصّة حقلٌ مُعجميٌّ واسعٌ للرُّعب والقلق؛ استخرجْهُ مبيّناً دورَهُ في التّعبيرِ عَن حالةِ أبناءِ القريةِ جماعاتٍ وأفراداً.
2. استخرِجِ العباراتِ الّتي تَدلُّ على شَيطناتِ جِرْيِسَ.
3. حوّلِ العبارةَ التّاليةَ إلى صيغةِ المُثنّى، ثُمّ إلى صيغةِ الجمعِ: «... فتُحصِنُ إثرَ كلِّ خاطرةٍ مُرعِبةٍ، وتَشُدُّ بمشلحِها الصّوف حولَ كَتفَيها، دَفعاً لعيونٍ كانَتْ تتوهّمُها».

5 عَنترُ

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1. مَن بَطلُ هَذه القصّةِ؟ وما صفاتُه؟
2. ما التّصرُّفاتُ الّتي كانَ عَنترُ يَقومُ بها فيُسبّبُ المَشاكلَ والمَتاعبَ لِبو مَحبوبٍ؟
3. كيفَ ظهرَ لكَ في القصّةِ أنّ القريةَ النّائيةَ كانتْ جائعةً أيّامَ حُكمِ الأتراكِ؟
4. كيفَ بَدَتْ لكَ تصرُّفاتُ الأتراكِ المُحتلّين في ذلكَ الحينِ؟
5. كيفَ نَجا عنترُ مِن مُصادرةِ الأتراكِ؟
6. ما الدّليلُ على الرّعبِ الشّديدِ الّذي أصابَ عادلاً في آخرِ القصّةِ؟

② مِن وَحْيِ النّصّ

1. لَو كُنتَ تَعيشُ في القريةِ، فهَل كُنتَ تقتني حماراً وبقَرةً؟ لماذا؟
2. هل جُعتَ مرّةً أو بقيتَ بلا أكلٍ عدّةَ أيّامٍ؟ إذا كانَ جوابُكَ «نعَمْ»، فأخبِرْنا بماذا شعرتَ. وإذا كانَ جوابُكَ «لا» فحاولْ أنْ تتخيّلَ ما الّذي يَشعرُ به الجائعُ لمدّةٍ طويلةٍ.
3. ما الرّابطُ بينَ هذا النّصِّ والنّصِّ السّابقِ «في سبيلِ اللُّقمة»، سواءٌ مِن حيثُ الزّمانُ أو مِن حيثُ الأحداثُ؟

③ في التّعبيرِ واللُّغةِ

1. تخيّلْ ما حصلَ بعدما قضمَ عنترُ أذنَ الجُنديِّ التُّركيِّ، وهروبَه معَ عادلٍ، في ما لا يُجاوِزُ عشرينَ سطراً.
2. في ضوءِ ما قَرأتَهُ عَن عنترَ في القصّةِ، صِفْهُ لنا في فقرةٍ مِن تأليفِكَ.
3. فصّلْ إعرابَ ما يلي:

لِمَ الغضبُ يا إبراهيمُ. إنّ منطقَ زوجتِهِ ليختلفُ كلَّ الاختلافِ عن منطقِه.

6 البَربارةُ

① في الفَهمِ والتّحليلِ

1. ماذا تَعني لكَ العبارةُ الأولى مِنَ القصّةِ: «في تلكَ اللّيلةِ... ويَفتحُ أُخرى»؟

2 ما المظاهرُ الّتي تُبيِّنُ في القصّةِ أنّ البلادَ في حالةِ حربٍ؟ وضِّحْ إجابتَكَ.

3 أَحَبَّ الولدانِ أنْ يُشارِكا في موسِمِ البَربارةِ، وأحبّتْ أمُّهما أيضاً؛ ماذا كانَ هدفُ الولدَينِ؟ وهدفُ الأمِّ؟

4 لماذا رفضَ الوالدُ بادئَ بدءٍ السّماحَ لولدَيْه بأنْ يدورا في ليلةِ البَربارةِ؟ وكيفَ وُفِّقَتِ الوالدةُ إلى إقناعِهِ بالقبولِ؟

5 ما الصّدَماتُ الّتي واجَهَها الطّفلانِ الفقيرانِ؟

6 ميَّزَ الأبُ نظرةَ النّاسِ إلى الفقراءِ، من نظرتِهم إلى الأغنياءِ؛ أين فعلَ هذا؟ وهل تُوافِقُ أنتَ النّاسَ على هَذا التّمييزِ؟ لماذا؟

7 كيفَ تفهمُ قولَ الكاتبِ: «وقدْ أثّرَ هذا المنطقُ في الولدَيْنِ لأنّهُما، بعدُ، من حِزبِ اللهِ»؟

2 مِن وَحْيِ النّصّ

للبربارةِ في لبنانَ موسمٌ معروفٌ؛ ما موعدُهُ؟ وماذا يفعلُ النّاسُ فيه؟

2 متى بدأتِ الحربُ العالميّةُ الثّانيةُ؟ ومتى انتهتْ؟ وبينَ أيِّ دُوَلٍ وقعَتْ؟

3 كيفَ تحتفِلُ أنتَ بعيدِ البربارةِ؟ أخبِرْنا بشيءٍ منَ التّفصيلِ.

4 مَنْ هي بَربارةُ الّتي نَحتفِلُ بعيدِها؟ وإلامَ تعودُ المظاهرُ والتّقاليدُ الّتي نُمارِسُها ليلةَ البربارةِ؟

3 في التّعبيرِ واللُّغةِ

اشرحْ معانيَ الصُّورِ البيانيّةِ التّاليةِ، مُحدِّداً نوعَ كلٍّ منها وأركانَهُ.

فكأنّه كابوسُ مقبرةٍ - سكّةُ سجنٍ - مجمعُ قِرشينِ - البطالةُ قصفصتْ جناحيْهِ - هُما بَيْنَ تَداعٍ للصّعودِ، ونَظرٍ إلى الشّارعِ.

2 استخرجْ من العبارت التّالية، الأسماء المنصوبة، وحدّدْ سبب نصبِ كلٍّ منها:

الوقتُ ينطوي سريعاً - تذكّرا فجأةً مهمّتَهما - عاد صفرَ اليدينِ - أنظارُه دوماً إلى وجهِ الرّجلِ - يبدو أنّ ثمّة ترحيباً - انطلقا في الشّمسِ لا يلويانِ على شيءٍ خوفاً من الظّلمة - هبّ من مكانه غولاً مفترساً راعقاً.

3 فصّلْ إعرابَ كلماتِ العبارةِ التّاليةِ، واذكُرْ محلَّ الجُملِ الموضوعةِ بَيْنَ قوسَيْنِ، في الإعرابِ:

يَبدو (أنَّ ثمَّةَ ترحيباً) في وَجهِها (شَعَرا) بِه، (فدَخَلا).

7 ابنُ العاملِ

(1) في الفَهمِ والتّحليلِ

1 من الرّجلُ الّذي كان سميرٌ يُفكّرُ فيه من دونِ أنْ يجدَ جواباً لتساؤلاتِه؟ لماذا؟

2 لماذا دخلَ سميرٌ إلى البيت حزيناً؟ هل أفصحَ عن السّبب توّاً؟ لماذا؟ وكيفَ عادَ فذكَرَ سببَ حُزنِه؟

3 لماذا ظنّتْ أُمُّه أنّ أصحابَهُ قدْ ضَربوه وأنّهم تَشاجروا معاً؟ وهل كانَتْ على حقٍّ في ظنّها؟ لماذا؟

4 ما الدّليلُ على أنّ العائلةَ كانَتْ تعيشُ في فَقرٍ؟

6. ما موقفُكَ من النّهاية الّتي انتهتْ إليْها قصّةُ سميرٍ وأبيه؟ هَل هي نهايةٌ إنسانيّةٌ مؤثّرةٌ؟ وما الحلُّ الّذي تراهُ لمثلِ هَذه المآسي؟

2 مِن وَحْيِ النّصّ

1. قالَ والدُ سميرٍ متذمّراً شاكياً: «ولكنّنا معَ هَذا سنصبرُ، ونُجاهدُ ونأمَلُ لنشهدَ فجرَ ذلكَ اليومِ الّذي فيه يتحقّقُ العدلُ الاجتماعيُّ، فيشعرُ العاملُ الفقيرُ أنّهُ إنسانٌ له ما لغيرِهِ مِن حقوقٍ» . أَتُراهُ، لو بقيَ حيّاً حتّى أيّامِنا، قدْ تَحقّقَ له ما كانَ يَصبِرُ ويجاهدُ ويأمَلُ، ليَشهدَهُ؟ وضّحْ إجابَتَكَ وعلّلْها.
2. هل يحقُّ لأربابِ العملِ أنْ يتحكّموا بالعمّالِ ويُهدّدوهُم بالطّردِ إنْ هُم تَمرّدوا أو أَضربوا للمطالَبةِ بحقوقِهم؟ لماذا؟
3. ما الشّرعةُ الّتي ترعى حقوقَ النّاسِ عموماً، والعمّالِ خصوصاً؟ وماذا تَعرِفُ عَن هَذه الشّرعةِ؟
4. هل كُنْتَ تَنتظِرُ «بابا نويل» في صِغَرِكَ؟ وهَل كانَ يأتي إليكَ؟
5. ما أَصلُ قصّةِ «بابا نويل»؟ ومِن أينَ انطلَقَتْ هذه الشّخصيّةُ؟

3 في التّعبيرِ واللُّغةِ

1. أَعِدْ كتابةَ العباراتِ التّاليةِ بلُغتِكَ أنتَ، محافظاً على المَعنى الّذي تتضمّنُه كلٌّ منها:

نظراتُه تكشِفُ عن رغبةٍ داخليّةٍ في أنْ يُطلِعَ والدتَهُ على سرٍّ لم يبقَ بوُسعهِ أنْ يكتُمَهُ ـ انقلبَتْ مَلامحُ سليمٍ عَن الحماسةِ

والثورة إلى هدوءٍ وألمٍ ـ وكان هذا الارتباكُ مصدر بهجةٍ لسميرٍ لا سبب انقضى ـ يعرضُ اللُّعَبَ الّتي سيحملُها له «بابا نويل»، بنشوةٍ روحيّةٍ، وبطلاقةٍ وبشاشةٍ تُخيّمان على مُحيّاهُ.

2. عندما سأل سميرٌ أُمّهُ عن «بابا نويل»، وردتْ على خاطر الأمّ مجموعةٌ مِنَ العباراتِ الّتي تدلُّ على الحِرمانِ والتّفاوتِ بينَ حياة الفُقراء وحياةِ الأغنياء؛ استخرجْ هذه العبارات، ثُمّ قدّمْ تعليقَكَ على مضمونِها.

3. حوّلِ العباراتِ التّاليةَ إلى صيغةِ المُثنّى، ثُمّ إلى صيغةِ الجمعِ، مغيّراً ما يلزمُ تغييرُه:

تلبّدَ وَجهُ الأمّ، وحملقَتْ إلى ولدِها طويلاً، ثُمّ ضمّتْهُ إلى صدرِها أشدَّ فأشدَّ، وراحَتْ تَستسلِمُ لسُيولٍ مِنَ الفِكَرِ تقاذفُها وتبعثُ في فؤادها لوعةً ترسمُ على وجهها أماراتٍ مِنَ الحُزنِ والألَم.

8 حَمدون

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1. ماذا عنى الكاتبُ في قولِه: «فإذا سلَّهُ جيبُه، وذيلُهُ، تمتلئُ بامتلائِه بسبَع النّاسِ وبحبوحةِ النّاسِ، وتخلو ما بَقيَ فارغاً مكشّراً»؟

2. كانَ حمدونٌ مسروراً بسَلّهِ؛ لماذا؟ وهل سُرَّ به زُملاؤه؟ لماذا؟

3. لماذا عَمدَ حمدونٌ إلى استعمالِ القوّةِ بعدَ ممارستِهِ العملَ؟ وهَل وُفِّقَ في خِطّتِهِ؟ كيفَ؟
4. مِن أينَ استمدَّ حمدونٌ قوّتَهُ؟ وهَل نجحَتْ سياسةُ القوّةِ في النّهايةِ؟ كيفَ؟
5. ما رأيُكَ في شخصيّةِ حمدونٍ؟ وهَل ترى أنَّ الحياةَ قدْ تدفعُ بالإنسانِ إلى تبديلِ شخصيّتِهِ على رُغمِهِ، أحياناً؟ كيفَ؟

(2) مِن وَحْيِ النّصّ

1. أترى أو تَعرِفُ فتياناً مِن أَمثالِ حمدونٍ في هَذه الحياةِ؟ ماذا يَفعلونَ؟
2. هَل تَرى عَيباً في عملِ العتّالِ أو العاملِ في نَقلِ سلَعِ الزُّبُنِ إلى سيّاراتِهِم في المحلّاتِ أو المخازنِ الكُبرى؟ لماذا؟
3. ما تعليقُكَ على أنَّ رغيفَ الفلافِلِ كانَ بخمسةٍ وعشرينَ قرشاً، أي برُبعِ ليرةٍ لبنانيّةٍ، وهو اليومَ بألفَي ليرةٍ؟

(3) في التّعبيرِ واللُّغةِ

1. أَخبِرْنا بلُغَتِكَ أنتَ، وبأسلوبٍ شائقٍ في السّردِ، المشهدَ الأخيرَ مِنَ القصّةِ: «وفي أحدِ الأيّامِ انقضَّ... العيشِ الشّريفِ».
2. استخرِجْ مِن مُجمَلِ القصّةِ ثلاثةَ تشابيهَ وثلاثَ استعاراتٍ أعجبَتْكَ، ثُمّ اشرَحْها مبيّناً أركانَ كلٍّ مِنها، ومعلّلاً سببَ إعجابِكَ بها.
3. صحّحْ ما تَراهُ خَطأً في العباراتِ التّاليةِ المُستوحاةِ مِنْ أَحداثِ

القصّةِ، معلّلاً سببَ التّصحيحِ:

كانَ لمَحلِّ الفلافِلِ بابينِ واسعانِ، وكانَ ثمنَ رغيفِ الفلافِلِ خمسةُ وعشرونَ قرشاً. صارَ مِن بينَ رُوّادِ المحلِّ الدّائمونَ. كانَتْ لَكَمالِهِ خيرُ حجّةٍ يُقنِعُ بها كلَّ زملاءِهِ.

محتوى الكِتابْ